الفصل الثالث

القصص القرآني في الأغراض الشعرية الأخرى

وهي الأغراض التي وجدنا فيها شيئاً من القصص القرآني كالمديح والغزل والوصف والهجاء والرثاء والحنين والشكوى والإخوانيات، وقد رتبناها حسب ما ورد فيها من قصص قرآني. والقصة في هذه الأغراض الشعرية هي القصة التاريخية، أوهي القصة التي وقعت أحداثها في الماضي، وأبطالها حقيقيون، ووردت في القرآن الكريم.

ومن أمثلة هذا النوع من القصص: قصص الأنبياء والمرسلين مثل: آدم ونوح. وهود. وصالح. وإبراهيم. ويوسف. وشعيب. وموسى. وداود. وسليمان. ويونس. وعيسى. ومحمد. ـ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـ وقصص بعض عباد الله الصالحين مثل: الخضر، وذي القرنين، وقصص بعض الجماعات مثل: أصحاب الكهف، وأصحاب الفيل.

إن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبي وتاريخي.أورد القرآن الكريم مواده القصصية من أحداث التاريخ ووقائعه وإن «ترتيب الأحداث في القصص القرآني يرجع إلى اعتبار بلاغي خاص من أجله يقوم العرض على أساس عاطفي وإنه في ذلك يخالف الأساس الذي يقوم عليه ترتيب الأحداث

عند المؤرخين قطعاً[1] لأن قواعد تدوين الأحداث وعرضها يعتمد على ذكر وقوع الحادثة وترتيبها الزماني والمكاني، والقرآن الكريم لم يلتزم بهذه القواعد لأنه لم يكن كتاباً في التاريخ، وإنما كان كتاباً يقصد من قصصه التي صاغها في أسلوب عاطفي مثير العظة والعبرة. «ومن المستشرقين من لا يعد القرآن فيما قصه من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن الاعتماد عليه، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل ومما يحددها في الزمان والمكان، وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد، وكتب التاريخ القديمة، ولكن هذا لا ينافي صدقهُ ولا صحة أخبارهِ، فإن القرآن ليس تاريخاً ولا قصصاً، وإنما هو هداية وموعظة، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، أو الإحاطة بتفاصيلها، وإنما لأجل العبرة»[2]. قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عِبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديهِ وتفصيلَ كل شيءٍ وهُدى ورحمةً لقومٍ يُؤمنون﴾[3].

وقد تأثر الشعراء في الأندلس بهذا القصص القرآني، واتخذوه في أغراضهم الشعرية، وكانوا يتخذون من القصة القرآنية الجوانب التي تفيدهم، وتطابق ما يرمون إليه في كل غرض من الأغراض، فمثلاً قصة النبي موسى ـ عليه السلام ـ نجدها في المديح والغزل والوصف والهجاء، ولكن في كل غرض من هذه الأغراض نجد جزءاً من هذه القصة يختلف عن الأجزاء الأخرى في تلك الأغراض وهكذا بقية القصص الأخرى. وفيما يأتي الأغراض الشعرية التي وردت فيها القصة القرآنية وهي:

---

1 محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم ١٢٦.

2 د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن ٢٢١ .

3 سورة يوسف: الآية ١١١.

١ ـ المديح:

هو فن إظهار المعاني النبيلة التي يتمتع بها الممدوح المثال من كرم وشجاعة، ومقدرة على رد الحقوق، وحماية الضعيف، «وشعر المديح يعطينا إلى جانب هذا صوراً صادقة للكمال الإنساني في أروع مظاهره، كما يمثله الشعراء المادحون، بصرف النظر عن مطابقته للممدوحين، فالشاعر يرسم صورة واضحة للإنسان المثالي في نظره، ويجسم خلائقه الممتازة من كرم وشجاعة وعفة ووقار»[1]. ويرتبط هذا الفن منذ القديم بالساسة والحكام وذوي الجاه والنفوذ، فهو يتأثر بمواقفهم، ينمو ويزدهر إذا لقي الرعاية والاهتمام منهم، ويخمل ويذبل حينما يهمله ذوو السلطة غير ملتفتين إلى قائليه. والرعاية هنا تعني الأذن الصاغية، والنفس الكريمة، واليد المعطاء من قبل الممدوح، وعندما تنعدم هذه الرعاية يختل موقف الشاعر، ويؤثر ذلك في إنتاجه الأدبي من المدائح. ويختلف مقدار استيحاء القصص القرآني لدى الشاعر وثقافته الدينية، وتعمقه في قراءة القرآن الكريم والاطلاع على قصصه، وقدرته على ربط القصة القرآنية بالمواقف المتشابهة أو المعاني التي يتحلى بها الممدوح.

ومن القصص التي استوحاها الشعراء في قصائدهم قصة النبي نوح ـ عليه السلام ـ وقد أعرض قومه عن دعوته إلى عبادة الله، فأنزل الله عليهم عذاب الطوفان والموت غرقاً، وأنجاه ومن معه في السفينة. قال تعالى: ﴿ويَصنعُ الفلكَ وكلما مرَ عليهِ ملأ من قومهِ سَخِروا منهُ قالَ أنْ تَسخروا منّا فإنا نَسخرُ منكم كما تَسخرونُ فسوف تَعلمون من يأتيه عذابٌ يُخزيهِ ويحلُ عليهِ عذابٌ مُقيمٌ حتى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التنورُ قُلنا احمل فيها من كُلّ زَوجينِ اثنينِ وأهلكَ إلا من سبقَ عليهِ القولُ ومن آمن وما آمن معهُ إلا قَليلٌ وقالَ اركبوا فيها بسم الله

1 علي عبد العظيم: ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه ٣٨٠ مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٥م.

مجراها ومُرساها إنَّ ربي لغفورٌ رحيمٌ وهي تجري بهم في موجٍ كالجبالِ ونادى نُوحٌ ابنهُ وكان في معزلٍ يا بُني اركب معنا ولا تكن مع الكافرينَ قالَ سآوي إلى جَبَلٍ يعصمُني من الماءِ قالَ لا عاصم اليومَ من أمرِ اللهِ إلا مَنْ رحم وحالَ بينهما الموجُ فكانَ من المُغرقينَ وقيلَ يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماءُ أقلعي وغيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واستوتْ على الجُودي وقيل بُعداً للقومِ الظّالمينَ﴾[1].

وقد تأثر بعض شعراء الأندلس ببعض جوانب هذه القصة ـ لا سيما جانب الطوفان منها ـ ويتحول معنى الطوفان من وسيلة لعقاب الكفار من قوم نوح، وسلب الحياة منهم، إلى وسيلة لإثابة الشعراء، ومنحهم العطاء والخير. ومن هؤلاء الشعراء: الأعمى التطيلي، أبو هريرة أحمد بن عبد الله (٥٢٥هـ). وفي قصيدة يمدح بها الأمير أبا يحيى، مصوّراً فيها الحديث عن جود ممدوحه لم يكن حديثاً عابراً، وإنما هو حديث مجالس، يجتمع الحاضرون حول الشراب، وهم يستمعون إلى أحاديث الراوي كأنها ألحان. فالممدوح فتى جواد يلوذ بأكنافه الكهول والشبان، وهو ليس بموسى ـ عليه السلام ـ لأن الأخير نبيٌّ من أنبياء الله ـ ولكن القناة التي تدافع عن عليائه ثعبان مثل عصا موسى تلقف ما يأفكون. وهو أيضاً ليس نوحاً ـ عليه السلام ـ ولكن رأفته جبل مثل جبل الجودي الذي رست عليه سفينة نوح، وعطاؤه طوفان مثل طوفان نوح، وهو في كلا الحالتين شجاع وكريم. قال:

وجُودِ أميرٍ كُلما مرَّ ذكرهُ ... فهاتِ اسقِني إنَّ الأحاديثَ ألحانُ
فتىً قلّما تلقاهُ إلا مُرحباً ... تلوذُ بحقويهِ كُهولٌ وشُبّانُ
ولَيسَ بموسى غَيرَ أني رأيتهُ ... وكُلُ قناةٍ دونَ عليائهُ ثُعبانُ
ولا هو نوحٌ غيرَ أنّي رأيتُهُ ... ورأفتهُ جودى، وجدواهُ طوفانُ[2]

---

1 سورة هود: الآيات ٣٨ ـ ٤٤ .

2 الأعمى التطيلي: ديوانه ٢٢٢ (ق ٧٠).

وكذلك يجد الشعراء في قصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ودعائه للبيت الحرام وساكنيه بالخير والبركة معنى آخر يضاف إلى معانيهم في المديح. وعندما أمر الله ـ تعالى ـ إبراهيم أن يضع ابنه إسماعيل وأمه هاجر عند موضع البيت العتيق بمكة ثم مضى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لايضيّعنا.ثم رجعت... فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه[1] فقال كما ورد في قوله تعالى: ﴿ربّنا إنِي أسكنتُ من ذُريتي بِوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتك المُحرّمِ ربّنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدةً منَ الناسِ تهوى إليهم وارزقهم مِنَ الثّمراتِ لعلهم يشكرون﴾[2].

ويتأثر ابن الحاج، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النميري (٧٦٨هـ) كان حياً بدعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ للبيت الحرام بالخير والرزق من الثمرات، ويضع هذا في قصيدة بعث بها إلى السلطان بالأندلس، ويبدؤها مخاطباً أحبابه أن يدعوا أدمعهُ تجري شوقاً للقياهم، وأن يهدوا له نسيم العذيب وبارق ـ وهما موضعان ـ ويعني بهما عذب ريق المحبوب المعطر، وبارق ثنا ثغره، ويطلب من صاحبيه أن ينادماه بالغرام مدى عمره لعله يخفف من ألم فراق حبيبه الذي يحل بالخدر الذي أسرعت به ناقة جسرة تسابق الريح إلى البلد الذي ليس فيه زرع ولا أنيس، ويدعوه أن يحل طيفه في بيت قلبه زائراً بدعوة إبراهيم الخليل للبيت الحرام، ليجلب إليه الخير والبركة. وهي دعوة يلمح فيها الشاعر لممدوحه كي يلتفت إلى أن حبه حل في قلب الشاعر، وأن هذا الحب سيجلب له العطاء والرزق الكثير. قال:

---

1 ابن كثير: قصص الأنبياء ١٥٤ .

2 سورة إبراهيم: الآية ٣٧ .

دَعـــوا أدمُعـــي شَـــوقاً للقيـــاكُم تجـــري

فـــإني في حُـــبي لكُـــم رابـــحُ التّجـــرِ

واهـــدوا لنـــا روُحَ العُـــذيب وبـــارقٍ

ولكـــنْ مِـــنَ الريـــقِ المعطّـــرِ والثّغـــر

فَيـــا صـــاحِبي نَجـــواي مـــن آل عـــامرٍ

ألا نادمـــاني بـــالغرامِ مـــدى عُمـــري

ويـــا مُثقـــل الخِـــدرِ الـــذي قَـــذَفتَ بـــهِ

أمـــونٌ تُبـــاري الـــريحَ في البلـــدِ القفـــرِ

دعوتـــكَ فاحلـــل بيـــتَ قلـــبي زائـــراً

بـــدعوة إبـــراهيمَ للبيـــتِ ذي الحِجـــرِ.[1]

وفي جانب آخر من قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو زيارة الملائكة لإبراهيم في بيته، وقيامه بالضيافة، وتبشيره بولادة غلام له يدعى إسحاق - عليه السلام - كما في قوله تعالى: ﴿هَل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيم المُكرمينُ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قالَ سلامٌ قومٌ مُنكرونُ فراغَ إلى أهله فجاءَ بعجلٍ سمينٍ فقربهُ إليهم قالَ ألا تأكلونَ فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾[2].

ويضيف ابن دراج القسطلي، أحمد بن محمد (٤٢١ هـ) معنى إكرام الضيف في قصة إبراهيم الخليل إلى قصيدته التي يمدح بها علي بن حمود بسبتة حين قصده الشاعر من الأندلس عام ٤٠٤ هـ، ويذكر بنسبه، فيجعله

---

1 ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة ٢٦٠.

2 سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٨.

ابن من بدئ بالسلام من ضيفه المكرمين، فقال بضيافة ملائكة السماء في منزله الذي صار مألفاً لمن ينزل به، ورد عليهم سلام رجل حليم منيب، وجاءهم بعجل سمين من خيار بقره، والممدوح لا يختلف عن أبيه إبراهيم، فأكنافه مألف للضيوف، وموطن كل صاحب عيال، أو فقير ومحتاج، وإكرام الضيف شريعة خلدها في الناس في كل مكان وزمان:

سَلامٌ وأنت ابن بدءِ السلا ... مِ مِنْ ضيفهِ المُكرمينَ الدُّخولِ
غداةَ يُضيفُ أهلَ السماءُ ... إلى مَنزلٍ آلفٍ للنَزيلِ
فَردَّ سلامَ حليمٍ مُنيبٍ ... وجاءَ بِعجلٍ كريمٍ عجول
وأعطانهُ مألفٌ للضيوفِ ... وموطنُ ذي عيلةٍ أو مُعيل
شرائعُ خلدها في الأنا ... مِ مِنْ كلِ أرضٍ وفي كلِ جيلِ[1]

أما قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فهي كما سماها الله تعالى من (أحسن القصص) لما تتضمنه «من العبر والحكم والعجائب واللطائف... وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجازاة يوسف إخوته، وصبره على أذاهم، وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما فعلوه معه، وكرمه على العفو عنهم»[2]. وتبدأ هذه القصة برؤية يوسف في المنام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له. كما في قوله تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحد عشرَ كوكباً والشمس والقمرَ رأيتهم لي ساجدينُ قالَ يا بُني لا تقصص رُؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوّ مبينُ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويُتمّ

1 ابن دراج القسطلي: ديوانه ٦٧ (ق ٣١) تحقيق د. محمود علي مكي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٦١.

2 الثعلبي: قصص الأنبياء ٦٣ .

نعمتَهُ عليكَ وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك مِن قبل إبراهيم وإسحاق إن ربّكَ عليمٌ حكيم﴾[1]. وقد جاء في قصص الأنبياء: «رأى يوسف ـ عليه السلام ـ وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبوه وأخوته فيها، فأمر بكتمانها، وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه، ويبغوا له الغوائل، ويكيدوا بأنواع الحيل والمكر»[2].

ويجد ابن دراج القسطلي في هذا الجانب من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ صورة تحاكي حاله، فاستطاع أن يعرضها أمام ممدوحه ابن أزرق ـ أحد كتاب المنذر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة ـ ليستثير شفقته ورأفته، فالشاعر تحتلب قواه سبع من البنات وأربعة من البنين وكلهم ظامئ جائع، وهم يشبهون أخوة يوسف في عددهم، ولكنهم يختلفون عنهم في أنهم لا يبرحون عن رؤياه. قال:

أخو ظمأ يمصُّ حشاهُ سبعٌ ... وأربعةٌ وكلهمُ ظماءُ
كأنجمِ يوسفٍ عدداً ولكنْ ... برؤيا هذهِ برحَ الخفاءُ
خُطوبٌ خاطبتهُم مِنْ دواهٍ ... يموتُ الحزم فيها والدهاءُ
وكُلّهُمُ كيوسف إذ فداهُ ... منَ القتلِ التّغرُّبُ والجَلاءُ
وإنْ سِجنٌ حواهُ فكم حواهم ... سجونُ الفُلكِ والقفرُ القواءُ
وإن أقوت مغاني العز منهمُ ... فكم عمُرت بهم بئر خلاءُ[3]

والأبيات صورة دقيقة لأسرته ينقلها إلينا بطريقة السرد الوصفي المبني

---

1 سورة يوسف: الآيات ٤ ـ ٦ .

2 ابن كثير: قصص الأنبياء: ٢٣٢.

3 ابن دراج القسطلي: ديوانه ٢٦٧ ـ ٢٧٧ (ق ٨٥).

على التعلق بالصورة الواحدة، والمضي في الكشف عن جوانبها الخفية، ولننظر إليه كيف «استخرج من قصة يوسف كل ما ينطبق على بنيه أو وجه المعاني التي في قصة يوسف ليمنحها لهم، فذكر أنهم أحد عشر كأنجم يوسف، وكل واحد فيهم هو يوسف الذي نجته الغربة من القتل، وإذا كان يوسف قد سجن فكل واحد فيهم قد مر في سجن السفينة أو وجد في القفز سجناً، وكل واحد منهم لجأ إلى بئر خلاء بعد مغاني العز الواسعة. وهذا تشقيق للمعنى وإسهاب فيه»[1]. وأخذ الشعراء يبحثون في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ عن معان جديدة تفيدهم في المديح، فوجدوا في سجن يوسف وخروجه منه معنى يمكن توظيفه في حالة الفرج بعد الشدة، ولم يفرج يوسف عن سجنه إلا بعد أن علم الملك بصدقه في تأويل رؤياه وبراءته من الفاحشة التي ألصقتها به امرأة العزيز فطلبه ليجعله من خواصه كما في قوله تعالى: ﴿وقال الملك ائتوني بهِ أستخلصهُ لنفسي فلما كلمهُ قالَ إنك اليوم مكين أمينٌ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليمٌ وكذلك مكنا ليُوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نُصيبُ برحمتنا من نشاءُ ولا نُضيعُ أجر المُحسنينَ﴾[2]. ويرى ابن سهل الأندلسي، إبراهيم (٦٤٩ هـ) في انتقال يوسف ـ عليه السلام ـ من السجن أو من حالة الضيق والعسر إلى حالة التكريم والثقة وتولي خزائن الطعام في مصر صورة تبعث على السرور والبهجة، وهي صورة لا تختلف عن صورة ممدوحه الوزير أبي علي بن خلاص الذي أصيب بمرض حبسه عن رؤية الناس، ولما شفي منه ونجا أهدت نجاته تعويذة للخائف عليه، وجلت طلعته نظر المتطلع إليه، فابتهج الجميع ابتهاج الأرض الممحلة للحيا، وإذا كانت تلك الغمة قد أدت إلى حبس الوزير عن الناس، فإنها أدت إلى الفرحة والبشر بشفائه. قال:

---

1 د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

2 سورة يوسف: الآيات ٥٤ ـ ٥٦.

أهـــدت نجاتـــك عـــوذةَ المتخـــــوف وجلـــت إياتـــكَ بغيـــة المتـــشوفِ
بَهـــجَ الجَميـــعُ بـــكَ ابتهـــاجِ الأرضِ في محـــلٍ بـــإطلاقِ الحيـــا المتوقـــفِ
يـــا غُمـــة أجلـــت لنـــا عـــن فَرحَـــةٍ كالـــسجنِ أفـــرجَ عـــن إمـــارة يوســـفِ[1]

وننتقل إلى جانب آخر من جوانب قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وهو مجيء إخوته إلى مصر في مدة وزارته يمتارون طعاماً فعرفهم وهم لا يعرفونه، فجهزهم وطلب منهم أن يأتوه في المرة القادمة بأخيهم من أبيهم (بنيامين) فرغّبهم ورهبهم إن لم يأتوا به فلا كيل لهم عنده ولا يقربون منه، ولما رجعوا أخبروا أباهم بمنع الكيل عنهم إن لم يأخذوا معهم أخاهم، فاستوثق منهم على أن يأتوا به، فعاهدوه على ذلك. «ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون[2]». ويجد ابن وهبون، أبو محمد عبد الجليل المرسي (٤٨٤ هـ) في إيواء يوسف لأخيه وضمه إليه معنى لا يختلف عن التحاق المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد استدعاه إلى الأندلس لرد جيوش النصارى الغازية بقيادة الفونسو السادس عام ٤٧٩ هـ وانتهت المعركة وهي معركة الزلاقة ـ بانتصار المسلمين. فالممدوح يوسف ينتمي في حمير والمعتمد ينتمي في لخم. والقبيلتان تنتميان وترتبطان بوشيجة والتحام، وإن ارتباط المعتمد بيوسف في ظل دولته الجديدة هو نفسه ارتباط بنيامين بأخيه يوسف في مدة حكمه بعد فراق طويل. قال:

فَثـــارَ إلى الطعـــانِ حليـــفُ صِـــدقٍ تَثـــورُ بـــهِ الحفيظـــةُ والـــذمامُ
نُمـــي في حِمـــيرٍ ونمتـــكَ لخـــمٌ وتلـــكَ وشـــائجٌ فيهـــا التحـــامُ

1 ابن سهل الأندلسي: ديوانه ٢٣٩ (ق ١٠٢) قدم له د. إحسان عباس، ط دار صادر، بيروت ١٩٦٧م.

2 سورة يوسف: الآية ٦٩.

فيوسفُ يوسفٌ إذ أنتَ مِنهُ كيامِنَ لا وهي لكُما نظامُ[1]

نَهجتَ لسُبلهِ نَهجاً فوافى وفي آذّيهِ الّطامي عرامُ[2]

ونمضي في تتبع جوانب هذه القصة حتى نصل إلى أواخرها، وهي عودة إخوة يوسف إليه بعد أن مسهم الجدب وضيق الحال، وجاؤوا ببضاعة ضعيفة لكي يستبدلوها بإيفاء الكيل لهم من الطعام، ورد أخيهم بنيامين إليهم. قال تعالى: ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ فأوفِ لنا الكيلَ وتصدّق علينا إنَّ اللهَ يُجزى المتَصدقينُ قالَ هَل علمتُم ما فعلتم بيوسفَ وأخيهِ إذ أنتم جاهلونُ قالواَ أإنكَ لأنتَ يوسفُ قال أنا يوسفُ وهذا أخى قد منَّ اللهُ علينا إنه من يتقِ ويصبر فإن اللهَ لا يضيعُ أجر المحسنينُ قالوا تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا وإن كُنا لخاطئينُ قال لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر اللهُ لكم وهو أرحم الراحمينُ اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين﴾[3].

ويتأثر ابن الخطيب بهذا الجانب من قصة يوسف، وهو جمع إخوته إليه وعفوه عنهم، وينقله إلى قصيدته التي نظمها في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف، ويهنئه في يوم بيعته في غرة ١٤ ذي الحجة عام ٧٣٣ هـ فالممدوح الذي نصر الدين إذ كاد يتلف وأنجز ما وعدهم به، وأنشأ طرق الخير والكرم لا يختلف عن يوسف ـ عليه السلام ـ في جمعه أبناء المكارم والعلا إليه، فقر بذلك سرير ملكه، وشدت أرجاؤه بهم. قال:

تلافيتَ نَصرَ الدينِ إذ كادَ يُتلفُ وأنجزتَ وَعدَ الحقِّ وهو مُسّوفُ

---

1 كيامن: مثل يامن وهو بنيامين أخو يوسف.

2 ابن بسام: الذخيرة ق ٢/١/٢٤٥ وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٢١/١١ نسخة مصورة عن مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

3 سورة يوسف: الآيات ٨٨ ـ ٩٣ .

وأنشأتَ في أُفقِ العُلا سحبُ الندى وسقيت روضَ المجدِ فهو مُفوّفُ
وجمعتَ أسباط المكارمِ والعلا وناديتَ: لاتثريب إذ أنتَ يُوسفُ
وقرَّ سريرُ المُلكِ لمّا حللتهُ ولولم تشد أرجاؤه كادَ يَرجُفُ[1]

وتتضمن قصة النبي موسى ـ عليه السلام ـ معاني تتناسب وموضوعات المديح، وقد استرفدها الشعراء في قصائدهم، ومن هذه المعاني إيناس النبي موسى ناراً من جانب الوادي المقدس، وذهابه للاقتباس منها فكلّمه الله بالنبوة. وقد تحدثنا عن هذا الجانب في الفصل الثاني.

وقد وجد الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب (٥٧٣هـ) في عبور عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين الأندلس، ونزوله جبل الفتح موضوعاً لا يختلف عن نزول موسى الطور، فربط بين الموضوعين لأنهما يلتقيان في هدف واحد، وهو الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، فاقتباس موسى من جانب الطور ناراً، وحصوله على النبوة، وتبليغ رسالته لا يختلف عن اقتباس الممدوح من جبل الفتح نار الهداية، وهي لم توقد ليهتدي بها الساري ليلاً أو ليصطلي عندها من البرد وإنما هي نور من نور النبوة والهداية تبدد ظلمة الانحراف. وهي ما تزال تتوهج لأن الممدوح يغذيها بتقواه، وصيامه الهاجرة، وقيامه الليل، فإيمانه هذا زيتها الذي كان مدفوناً تحت رماد الكفر، حتى مجيء ابن تومرت الملقب بالمهدي ـ والممدوح خليفته ـ فظهر وأضاء ما حولهُ:

لو جئتَ نارَ الهُدى من جانبِ الطورِ
قَبَستَ ما شئتَ مِن علمٍ ومن نورِ
مِن كُل زهراء لم تُرفع ذؤابتُها
ليلاً لساريٍ ولم تشبب لمقرورِ

1 ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام ٦٢٠(ق ٣٣١).

فَيـــضيّةِ القـــدح مِـــن نـــورِ النبـــوءةِ أو

نـــورِ الهدايـــةِ تَجلـــو ظُلمـــة الـــزّورِ

مـــا زالَ يُقـــضمها التقـــوى بموقـــدها

صَـــوّامُ هـــاجرةٍ قَـــوامُ دَيجـــورِ

حتّـــى أضـــاءت مِـــنَ الإيمـــانِ عـــن قـــبسٍ

قـــدْ كـــانَ تَحـــتَ رمـــادِ الكـــُفرِ مكفـــورِ

نُـــورٌ طـــوى اللهُ زنـــدَ الكـــونِ منـــهُ علـــى

ســـقطٍ إلى زمـــنِ المهـــديِّ مـــذخورِ[1]

وفي الوادي المقدس من جانب الطور خاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ـ عليه السلام: وما تلك بيمينك يا موسى. قال هيَ عصاي أتوكأ عليها وأهشُ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنُعيدها سيرتها الأولى. واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى»[2].

ويضع حازم القرطاجي (٦٨٤ هـ) هاتين المعجزتين للنبي موسى، وهما معجزة العصا ومعجزة اليد البيضاء موضعهما في قصيدة يمدح بها الخليفة الحفصي، فالأولى تدل على معان منها إبطال سحر القول، والثانية تدل على الكرم والعطاء، ووجد أيادي ممدوحه البيض بدت مضيئة، فقضت على سواد الأمور الصعبة والأحداث الجسام التي مرّ بها الناس وحكم ممدوحه الناصعة أبطلت ما أبدى البيان من سحر القول، وهاتان الخصلتان ليستا إلا معجزتي الكليم لديه، فاستجابت بهما أنفس الناس لهديه، وأخلصت إليه في السر والعلن. قال:

---

1 الرصافي البلنسي: ديوانه ٧٧ (ق ٢٤) جمعه وقدم له د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة بيروت ١٩٦٠م.

2 سورة طه: الآيات ١٧ ـ ٢٢.

وكـــم مِـــن يـــد بيـــضاء منـــكَ بَـــدت لـــنا

فجَلَـــت ســـواد الحطـــبِ والحـــادثِ البكـــرِ

وكـــمْ حكمـــةٍ غـــرّاء مِنـــكَ قـــضتْ لنـــا

بإبطـــال مـــا أبـــدى البيـــانُ مـــن الـــسحرِ

فَهـــل آيتـــا مُوســـى الكليـــمِ لديكـــمُ

بمـــا حُـــزتَ مِـــن حُكـــمٍ ومِـــن نائـــلٍ غمـــرِ

أصـــاخت لـــداعي هـــديكُم أنفـــسُ الـــورى

وأشـــعرتِ الإخـــلاصَ في الـــسرّ والجهـــرِ[1]

ويتناول أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٤٥ هـ) المعنى الذي تدل عليه اليد البيضاء وهو الجود والكرم في قصيدته التي كتبها إلى ممدوحه الرئيس قطب الدين بن شيخ السلامة ناظر الجيوش بدمشق. فيبلغ به الحد الأعلى وهو الجود في حالة الغربة والبعد، ولأن طبيعة الغربة تقتضي الاقتصاد في الإنفاق ولكن الممدوح أبى ألا أن تكون يده مغموسة في الجود، وإذا ما اسودت الأيدي من بخل يتعلق بها، فإن يده تخرج بيضاء من غير سوء مثل يد موسى. قال:

كـــريمٌ إذا مـــا طوحـــت غـــربةُ النـــوى

إليـــهِ بعـــافٍ صـــارَ في الجُـــودِ مغموســـا

إذا اســـودت الأيـــدي لبخـــلٍ يُـــشينها

فكـــم مـــن يـــدٍ بيـــضاء جـــاد بهـــا مُوســـى[2]

ومما خاطب الله تعالى به موسى ـ عليه السلام ـ في الوادي المقدس، وأنعم عليه بالنبوة قوله تعالى: "ولقد منّا عليك مرة أخرى. إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى.

---

1 حازم القرطاجني: ديوانه ٥٦ (ق ١٨) تحقيق عثمان الكعاك، مطبعة عيتاني، بيروت ١٩٦٤م.

2 أبو حيان الأندلسي: ديوانه ٢٢٥ (٩٤ق).

أن اقذفيه في اليم فليلقه اليمُّ بالساحل يأخذهُ عدوٌّ لي وعدوٌّ له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني. إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدرٍ يا موسى"[1].

ويوظف حازم القرطاجني أيضاً معنى التقدير والتوقيت: لنبوة موسى ـ عليه السلام ـ في معنى التقدير والتوقيت لخلافة ممدوحه الحفصي، فيهنئه في قصيدة ببيعته بالخلافة، وقد جاءته على قدر من الله ـ تعالى ـ وتوقيت منه كما جاءت نبوة موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ قال:

بُشرى ببيعةِ مولانا ابنِ مولانا
فكم أيادٍ بها الرّحمن أولانا
جلّت بها عندنا نُعمى الالهِ فما
أحقنا بمسراتٍ وأولانا
خلافةُ الله صارتْ من إمام هُدى
إلى إمامٍ هُدى بالعدل أحيانا
جاءت إليهِ لميقاتٍ وجاءَ لها
كما لميقاتهِ جاءَ ابنُ عِمرانا
وعندما قُدّر الوقتُ السّعيدُ لها
جاءت على قدرٍ تَلقاهُ لقيانا[2]

ولعل من أهم اللفتات التي تتمتع بها قصة داود ـ عليه السلام ـ الإشارة إلى ما يعتري الأنبياء أحياناً من حالات الضعف الإنساني، ولكن ذلك لم يمنع

---

1 سورة طه: الآيات ٣٧- ٤٠.

2 حازم القرطاجني: ديوانه ١١٨ (ق٤٢).

القرآن الكريم من ذكرها والثناء عليهم بما هم عليه. فقد ابتلي داود من الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أعطي فصل القضاء بين الناس، فدخل عليه مكان عبادته خصمان بغى أحدهما على الآخر ليحكم بينهما، ففطن إلى الغاية من عرض هذه القضية أمامه وهي تذكيره بقضية أخرى تشبهها، وكان هو أحد طرفيها، فاستغفر ربه وأناب. قال تعالى: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا بالمحرابُ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصّراطُ إنّ هذا أخى له تسعٌ وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطابُ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربَّه وخر راكعاً وأنابُ فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحُسن مآب﴾[1].

وقد ذهب بعض المفسرين فيها مذاهب بعيدة عدة، وقد أعرضنا عن بعضها ونكتفي ببعض. جاء في الكشاف ما يأتي: "فإن قلت: ما معنى ذكر النعاج، قلت: كان تحاكمهم في نفسهم تمثيلاً، وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا، وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمح الافصاح به.. فإن قلت: الملائكة ـ عليهم السلام ـ كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم، قلت: هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي..."[2].

وجاء في التفسير الكبير: "المسألة الثانية هنا هو قولان: الأول: أنهما

---

1 سورة ص: الآيات ٢١ – ٢٥.

2 الزمخشري: الكشاف ٢/٢٨١.

كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود ـ عليه السلام ـ على قبح العمل الذي أقدم عليه. والثاني: أنهما كانا إنسانين، ودخلا عليه للشر والقتل فظنا أنهما يجدانه خالياً، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر"[1].

وفي قصص الأنبياء: "بعث الله ـ تعالى ـ ملكين في صورة رجلين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهم الحراس أن يدخلا عليه، فتسورا المحراب، وهو يصلي، فما شعر إلاّ وهما بين يديه جالسان... حيث كنّى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيراً توري عن النساء وتكني عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش في أشعارهم... وقال القائلون بتنزيه المرسلين في هذه القصة أن لا ذنب إنما كان تمنى أن تكون له امرأة (أوريا) حلالاً وحدث نفسه بذلك فاتفق له غزوة، فأرسل أوريا فقدمه أمام الحرب فاستشهد، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه، ولم يتوجع كما كان يجزع على غيره من جنده إذا أهلك، ووافق قتله مراده، ثم تزوج بامرأته، فعاقبه الله على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله..."[2].

ويتأثر ابن هاني، أبو القاسم محمد (٣٦٢ هـ) بما كان يشعر به النبي داود من الذنب، والرغبة الصادقة في طلب التوبة والمغفرة، ويجعل ذلك موقفه أمام ممدوحه جعفر بن علي، وبعد أن يصفه بالكرم والشجاعة والمقدرة على تسيير الأمور مما جعل الإمام يسد به الثغور مثلما استعان النبي ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ بالأنصار ليهزم الأحزاب المجتمعة في معركة الأحزاب أو الخندق.

والأنصار يمانيون والممدوح من ملوكهم، وإن الشاعر قد أذنب ـ دون قصد ـ في إرجاع نسبه إلى غيرهم، مثله مثل داود في هذا الموقف، ولائموه مثل

---

1 الرازي: التفسير الكبير ١٢٨/٧.

2 الثعلبي: قصص الأنبياء ١٥٦- ١٥٧.

الخصمين اللذين تسورا المحراب عليه، وها هو يتوب أسوة بتوبة داود. قال:

سـدَّ الإمـامُ بـكَ الثغـورَ وقبلـهُ
هـزمَ الـنبيُّ بقومِـكَ الأحزابـا
أنـتمُ ذوُو التِّيجـانِ مِـنْ يَمـنٍ إذا
عُـدَّ الـشريفُ أرومـةً ونـصابا[1]
هـبني كـذي المحـرابِ فيـكَ، ولُـوّمي
كالخـصمِ حـينَ تَـسوروا المِحرابـا
فأنـا المُنيـبُ وفيـهِ أعظـمُ أسـوةٍ
قـدْ خـرَّ قبلـي راكعـاً وأنابـا[2]

وكأني بهذا الشاعر يريد التراجع والاعتذار عما قاله من قبل في نسب الممدوح، لأنه لم يكن متأكداً من ذلك النسب، ولكنه في هذه القصيدة راح يؤكد نسبه في ملوك اليمن ويعتذر عن ذنبه. أو كما قال الدكتور منير ناجي: "وإني لأشعر أن أناساً قد لاموا ابن هاني على ما قاله أولاً في أبناء علي بن حمدون إذ نسبهم إلى الفرس أولاً، فهو يشير إلى هؤلاء اللوم، ويتخذ مثل داود عذراً"[3].

ويتبين من خلال قصة سليمان ـ عليه السلام ـ فضل الله ـ تعالى ـ عليه ومنته، فقد وَرَّثَ أباه الملك والنبوة، وعلمه الله تعالى ـ منطق الطير، وأوتي

---

1 الأرومة: أصل الشجرة وقد استعارها الشاعر للحسب. والنصاب: أصل كل شيء.

2 ابن هاني: ديوانه ٢٠٢ (ق٢٥) تحقيق وشرح كرم البستاني، ط مكتبة صادر، بيروت ١٩٥٢م.

3 د. منير ناجي: ابن هاني الأندلسي: درس ونقد ١٣٣ دار النشر للجامعيين، ط شركة الطباعة الحديثة، بيروت ١٩٦٢م.

كل ما يحتاجه لملكه من جند وآلات وخيل وجن وإنس وطير ووحش وشياطين تعمل عنده.

ولقد أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يختبر طاعته، وهو يستعرض خيوله الضامرة والسريعة، ويزهو بقوتها وسرعة جريها في التسابق ما بينها، ويردها إليه فيمسح العرق المتصبب من سوقها وأعناقها، وافتتن بها ونسي ذكر الله، ثم فطن لذلك واستغفر ربه وآب إليه. قال تعالى: "ووهبنا لداود سليمان نِعمَ العبد إنه أوابٌ. إذْ عُرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد. فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق"[1].

وفي القصص: (نعم العبد إنه أواب): أي رجاع مطيع لله. ثم ذكر - تعالى - ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، الجياد: وهي المضمرة السراع... (توارت بالحجاب) يعني الشمس، وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين. (فطفق مسحاً بالسوق والاعناق) قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف. وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر..."[2].

وعلى هذا فإن في هذه القصة قولين:

القول الأول: "قالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس. روي هذا عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وغيره. والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللهم إلا أن يقال أنه كان سائغاً في شريعتهم، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل".

القول الثاني: "وأما من قال: الضمير في قوله: (حتى توارت بالحجاب) عائد على الخيل، وأنه لم ينتهِ وقت الصلاة وأن المراد بقوله: (ردوها علي فطفق مسحاً

---

1 سورة ص: الآيات ٣٠- ٣٣.

2 ابن كثير: قصص الأنبياء ٥٠٨.

بالسوق والأعناق) يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها. فهذا القول اختاره ابن جرير، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق. ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة، ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها"[1].

والقول الثاني أقرب إلى الواقع وإن كان ابن هاني الأندلسي قد أخذ بالقول الأول في مدحه الخليفة المعز لدين الله، ويذكر ركوبه في بعض الأعياد، ويصف هذه الخيل ذات الحوافر المخضبة بالدم الأحمر مما وطئته في جماجم الأعداء المفلقة، بأنها تمرق في جريها لتحقيق النصر أسهماً على الخارجين على الدين، والممدوح قد اختارهن لحب سليمان - عليه السلام - للضمّر الأصيلات منهن، ولكنه لو رأى ما رأى الممدوح منهن في هذه الواقعة حين تتوارى الشمس خلف حجاب الظلام، لم يقل ردّها علي، ولا يضرب سوقها وأعناقها بالسيف. قال:

وتَراهـــا حُمـــرَ الـــسَّنابكِ ممّـــا
وطِئـــت في الجَمـــاجمِ الأفـــلاقِ
اللّـــواتي مَـــرقنَ مـــن أضـــلُعِ النّـــصـ
ـــرِ أســـهُماً علـــى المُـــرّاقِ
أنـــتَ أصـــفيتُهنَّ حُـــبَّ سُـــليما
نَ قـــديماً للـــصافناتِ العِتـــاقِ
لـــو رأى مـــا رأيـــتَ منهـــا، إلى أن
تَتَـــوارى شمـــسٌ بِـــسجفِ الغَـــساقِ

1 المصدر نفسه ٥٠٨.

لم يقُـــــلْ ردَّهـــــا علـــــيَّ، ولا يطْـــــــ

ـــــفِقُ مَـــــسحاً بالـــــسُّوقِ والأعنـــــاقِ[1]

واختبر الله ـ تعالى ـ نبيه سليمان ـ عليه السلام ـ أيضاً بعد أن أعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد أن يمتلك مثله، فاحتجب أياماً عن النظر في أمور الناس، فاستولى أحد جنده على خاتمه، وجلس على كرسيه في الحكم مدة أربعين يوماً، فاستغفر سليمان ربه، وتاب إليه، فأعاده الله إلى ملكه. قال تعالى: "ولقد فتنا سُليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب"[2].

وقد ذكر المفسرون آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها متلقى عن أهل الكتاب. ومما أخبر به شعيب بن محمد العجلي بإسناد عن سعيد بن المسيب "أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه أن يا سليمان احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تنصف مظلوماً من ظالم. وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه... وهذا أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب إلى النفوس"[3].

ووجد ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (٧٧٦ هـ) في فتنة سليمان وإغارة بعض جنده على كرسيه، وغيابه عن ملكه، وسجوده، لله طالباً المغفرة، وداعياً ليهب له ملكاً عظيماً حالة لا تختلف عن حالة ممدوحه السلطان محمد بن يوسف الغني بالله حين ثار عليه جماعة ونصبت أخاه سنة ٧٦٠ هـ ملكاً على غرناطة، ففقد الغني بالله عرشه، وفقد ابن الخطيب وزارته، ونزلا ضيفين عند

---

1 ابن هاني: ديوانه ٩٧ (ق ١٣).

2 سورة ص: الآيتان: ٣٤- ٣٥.

3 الثعلبي: قصص الأنبياء.

أبي سالم المريني ملك المغرب، وبعد مدة استرجع الغني بالله عرشه، وعاد ابن الخطيب إلى وزارته عام ٧٦٣هـ، وكان ذلك فضلاً من الله وإحساناً. فقال:

هنيئـــاً بمـــا خُولـــتَ مـــن رفعـــةِ الـــشّانِ
وإنْ كـــره البّـــاغي وإنْ رغـــم الـــشّاني
وإن خَـــصَّك الـــرّحمنُ جَـــلّ جَلالُـــهُ
بمعجـــــزةٍ منـــــسوبةٍ لـــــسُليمانِ
أغـــارَ علـــى كُرســـيّهِ بعـــضُ جِنّـــهِ
فألقَـــتْ لـــهُ الـــدُّنيا مقالـــدُ إذْعـــانِ
فلمّـــا رآهـــا فتنـــةً خـــرَّ ســـاجداً
وقـــالَ إلهـــي امـــنُنْ علـــيَّ بغفـــرانِ
وهـــبْ لـــي مُلكـــاً بعـــدَها لـــيسَ ينبغـــي
تقلّـــدهُ بعـــدي لانـــسٍ ولا جـــانِ
فآتـــاهُ لمّـــا أنْ أجـــابَ دُعـــاءهُ
مِـــنَ العـــزّ مـــا لمْ يُـــؤتِ يومـــاً لإنـــسانِ
وإنْ كـــانَ هـــذا الأمـــرُ في الـــدَّهرِ مُفـــرداً
فأنـــتَ لـــهُ لمّـــا اقتـــديتَ بـــهِ الثّـــاني
فَقابِـــل صـــنيعَ اللهِ بالـــشُّكرِ واســـتعنْ
بـــهِ واجـــزِ إحـــسانَ الالـــهِ بإحـــسانِ[1]

ولما أعرض سليمان ـ عليه السلام ـ عن حب الخيل ابتغاء وجه الله تعالى عوّضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً، وأكثر تحملاً، وأعظم قوة منها،

1 المقري: نفح الطيب ٣٥٢/٦.

ولا كلفة عليه لها. قال تعالى: "ولسليمان الريح عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكُل شيء عالمين"[1]. وقوله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب﴾ وقوله تعالى أيضاً ﴿ولسليمان الرّيح غدوّها شهر ورواحها شهر...﴾[2].

وفي القصص: "كان له بساط مركب من الخشب بحيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه... من الخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور. فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الريح الرخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذلك أمر الريح العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء"[4].

وينسب الشاعر الرمادي، يوسف بن هارون (٤٠٣ هـ) هذا الفضل الذي أعطاه الله تعالى لسليمان إلى ممدوحه الذي يقود في حربه جنود الجو وهي النسور، وجنود العرش وهم الملائكة، وجنود الثرى وهم من البشر، ولذا فإن أعداءه معذورة في هزائمها أمامه. وما دام ملائكة الرحمن تحت ظل لوائه أو تحت إمرته، وتحت ظل هذا اللواء جند من النسور الكبيرة التي تنتظر القتلى من أعدائه لأنها تعلم مقدار فتكه بهم، فكأنه سليمان بن داود تحتها على البساط تظلله من ضوء الشمس وحرارتها. قال:

---

1 سورة الأنبياء: الآية ٨١.

2 سورة ص: الآية ٣٦.

3 سورة سبأ: الآية ١٢.

4 ابن كثير: قصص الأنبياء ٥١١.

يقـــودُ جُنـــودَ الجـــوِّ والعـــرشِ والثّـــرى

فأَعـــــــداؤهُ معـــــــذُورةٌ في الهـــــــزائمِ

ملائكـــــةُ الـــــرّحمن تحـــــتَ لوائـــــهِ

ومـــــن تحتـــــهِ جُنـــــدُ النُـــــسورِ القَـــــشاعمِ

كـــــأنَ سُـــــليمانَ بـــــن داودَ تَحتهـــــا

تُظلّلـــــهُ مـــــن حـــــرِّ تلـــــك الـــــسَّمائمِ[1]

ومن القصص القرآني التي تتطرق إلى ذكر عباد الله الصالحين، وكان يقصد من ذكرها العظة والعبرة قصة ذي القرنين. وتبدأ هذه القصة بلفتة بديعة تثير الانتباه إلى أنها نزلت ليجيب بها الرسول الكريم ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ عن سؤال وجه إليه. مثل قوله تعالى: "ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منهُ ذِكراً"[2]. ثم يستعرض تفاصيلها حتى نصل إلى أحد جوانبها في قوله تعالى: ﴿حتى إِذا بلغ بينَ السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً قالوا يا ذا القرنين إِن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً قال ما مكنى فيه خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردْماً آتونى زُبَرَ الحديد حتى إِذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إِذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً قال هذا رحمة من ربّى فإِذا جاء وعد ربّى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً﴾[3].

---

1 الرمادي: شعره ١٢١ (ق١١٢) جمعه وقدم له ماهر زهير جرار، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠.

2 سورة الكهف: الآية ٨٣.

3 سورة الكهف: الآيات ٩٣ – ٩٨.

روي عن ابن عباس "أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط وغيرهما إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فلما سألوهم، قالوا لهم: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بها فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم. فإنه كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟"[1] فنزلت قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين لتأييد رسوله الكريم - (صلى الله عليه وسلم) - وإقامة الدليل على صدق ما يدعو إليه.

وفي القصص: "أن ذا القرنين لما بنى السد قاس ما بين الجبلين، ثم بنى ردماً بلبن الحديد، وجعل ارتفاعه من الأرض نحو ستمائة ذراع، وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع، فكان يضع اللبنتين من الحديد ويذوب النحاس ويجعله بينهما... وكان مقدار ما بين الجبلين مائة فرسخ، فحفر أساس ذلك الردم حتى نبع الماء منه، ثم ردمه بالحديد حتى ارتفاع بناء السّد، وساوى ذلك الجبلين، فصار قطعة واحدة من حديد"[2].

ويتأثر أبو الصلت أمية (٥٢٩ هـ) بالصورة القرآنية التي يقوم فيها ذو القرنين ببناء سد ضخم يمنع يأجوج من الاختلاط بأمة صالحة من الأمم الأخرى، والإفساد في الأرض. وينقل تلك الصورة إلى ممدوحه يحيى بن تميم الصهناجي، ويذكر فيها وصول هدايا ملك الروم إليه بعد الصلح. ويصف تلك المعركة التي لو لم تنته إلى الصلح لكان ملك الروم هو المهدى أسيراً بين يديه. فكل سيف إذا سل من غمده اعتاض منه هامات الأبطال غمداً. وفي خضم هذه

---

1 السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ١٤٤ ط القاهرة ١٩٥٤.

2 ابن أياس: بدائع الزهور ١٦٣.

المعركة ترك الممدوح الملك بقسطنطينة للرعب ما أخفى منه وما أبداه وقد سد عليه الشمس بالسيوف، فودّ محاذراً منه لو جاوز هذا السد المنيع. قال:

يُهاديكَ منْ لو شِئتَ كانَ هُو المُهدي
وإلاّ فَضمنهُ المُثقّفة المُلدا
وكُل سُريجي إذا ابتزّ غِمده
تعوَّضَ منْ هامِ الكُماة لهُ غِمدا[1]
ظُبى أَلِفت غُلب الرقّاب وصالها
كما ألفت منهُن أغمادها الصدّا
تَركتَ بقسطنطينة ربَ مُلكها
وللرُّعبِ ما أخفاهُ منهُ وما أبدى
سددتَ عليه مَغرِبَ الشمسِ بالظُّبى
فودَّ حذاراً مِنكَ لو جاوزَ السدا[2]

وتضيف قصة النبي عيسى بن مريم وأمه ـ عليهما السلام ـ معنى آخر إلى معاني المديح الأخرى، ويتبين من خلالها أن الله ـ تعالى ـ قد اختار مريم من بين نساء العالمين لتكون أماً لولد من غير أب، وبشرها بأن يكون نبياً. قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربّكِ

1 سريجي: السيف المنسوب إلى سريج من السيوف المشهورة.

2 الحكيم أبو الصلت امية: ديوانه ٨١ جمع وتحقيق محمد المزروقي، ط الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس ١٩٧٤م.

لأهب لك غُلاماً زكياً قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشرٌ ولم أكُ بغياً قال كذلك قال ربك هو علىّ هينٌ ولنجعله آيةً للنّاس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربُّكِ تحتك سريّاً وهُزّى إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رُطباً جنيّاً فكُلى واشربى وقرّى عيناً فإمّا ترين من البشر أحداً فقُولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّاً﴾[1].

وفي القصص: "وهزي إليك بجذع النخلة"... قيل: كان جذع النخلة يابساً، وقبل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، ولكنها لم تكن ثمر إذ ذاك، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء، وليس ذاك وقت مثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان (تساقط عليك رطباً جنياً)"[2].

ووجد الشاعر ابن اللبانة الداني في قصة المسيح وأمه مريم – عليهما السلام - مثالاً يحتذيه في جعل يد ممدوحه شفاء من الفقر، وزيادة في الخير والبركة والعطاء. فقد تذكر ممدوحه المعتمد بن عباد حين أخذت آماله بالتعطش نحوه، وقد منعت من الخمس أو الربع من الصلات السنية التي كان ينالها منه، فتصاغرت منزلته وكبرت معرفته بنفسه، فما هو إلا إنسي قد أمسى على صورة أفعى ارتضت لنفسها الاختباء في جحر صغير، وكان من قبل تحت ظل ممدوحه يهزّ المجد في حال حاجته فتساقط عليه الصلات، كما هزّت مريم جذع النخلة في حالة المخاض فتساقط عليها رطباً جنياً. قال:

ذكرتُـــكَ والآمـــالُ نَحـــوكَ عُطّـــشٌ
وقـــد منعوهـــا الخُمـــسَ بَعـــدكَ والرُّبعـــا

1 سورة مريم: الآيات ١٦- ٢٦.

2 ابن كثير: قصص الأنبياء ٥٧٤.

صَـــغرتُ مكانـــاً إذْ كـــبرتُ دِرايـــةً

كـــأني مُمـــسيٌ علـــى خلقـــةِ الأفعـــى

وكُنـــتُ أهـــزُّ المجـــدَ في حـــالِ حَـــيرةٍ

كمـــريمَ إذْ هـــزّت وقـــد حـــارتِ الجـــذْعا[1]

وكذلك يتخذ شعراء المديح من معجزات النبي عيسى بن مريم أمثلة تقاس بها صفات الممدوحين، ومن هذه المعجزات: إحياء الموتى بإذن الله، وشفاء المرضى. قال تعالى: ﴿إِذْ قال اللهُ يا عيسى ابنَ مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتكَ إِذْ أيدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذْ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإِذ تخُلقُ من الطين كهيئة الطّير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتُبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإِذ تخرج الموتى بإذني وإِذ كففت بني إسرائيل عنك إِذْ جئتهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إِن هذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾[2].

وفي القصص: "(وتبرىء الأكمه...) قال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته. (والأبرص) هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً. و(إذ تخرج الموتى) أي من قبورهم أحياء بإذني..."[3].

وتتحول تلك المعجزات إلى صفات عند الممدوح، فإحياء الموتى إعادة الشاعر من حالة العدم إلى حالة الغنى أو من الموت إلى الحياة. وشفاء المرضى هو التخلص من مرض الفقر والعوز. وعندما تجتلي عينا الشاعر أبي الحكم عمرو

---

1 ابن اللبانة الداني: شعره ٦٢ (ق ٤٦).

2 سورة المائدة: الآية ١١٠.

3 ابن كثير: قصص الأنبياء ٦٠١.

بن مذحج مُحياً الوزير أبي العلاء بن زهر فإنها تراه مصوغاً من العطاء والحياء، فتطلعت إليه بشوق لأنه الممدوح الذي تمتلك أيدي لقياه معجزة المسيح للشفاء من مرض الحاجة والعوز. ويعجب الشاعر من نفسه كيف يصبح جاراً لهذا الذي صارت حياته بين كفيه، ويموت بداء الحاجة والعوز. قال:

متى تجتلي مِنكَ ابن زُهرٍ نواظري
مُحيّاً مصوغاً منْ حياً وحَياءِ
فقد ذَويتْ شوقاً إليكَ نَواظري
وفي يَدِ لُقياهُ مسيحُ شفائي
وأعجبُ منيّ كيفَ أصبحتُ جارَ مَنْ
حَياتي بكفّيهِ ومَوتُ بدائي[1]

وأثّرت شخصية الرسول الكريم محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ في الشعراء فاتخذوا منها قدوة حسنة لممدوحيهم، وما قام به من أعمال في حياته أمثلة يحتذى بها، فتناول الشعراء هذه الشخصية بالاحتذاء والمحاكاة ثم بالمدح والتعظيم وقد جاء ذلك في الشعر على نوعين:

أ- النوع الأول: يذكر الشعراء شخصية الرسول وصفاته وأعماله ضمن قصائد المديح، وتتخذ لغرض المحاكاة والقياس. كما في حادثة صلح الحديبية التي قام بها الرسول الكريم مع قريش، واكتفى بالهدنة عن القتال ثم فتحت مكة بعد ذلك. قال تعالى: ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محلّهُ ولولا رجالٌ مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله

1 ابن سام: الذخيرة ق ٢/٢/٥٨٨.

في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافوا فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾[1].

ويتخذ الأعمى التطيلي، من هدنة الرسول مع أهل مكة وتأجيل الفتح معنى يضعه في مديح علي بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في تأجيل فتح طليطلة ورد الخيل عنها حتى تحين آجالها أسوة بالرسول حين ثناها عن حصار ثقيف بعد أن أحيطت بالرماح والسيوف، ووافاهم العطش والخوف، وكذلك مهادنته أهل مكة ويعني صلح الحديبية، ولكنهم ما برحوا حتى أتوها بعد ذلك بكتائب تثير النقع وهي تتراءى من عند جبل الحجون، فإن أحرزت طليطلة وقتاً فإن سيف الممدوح ضمين بفتحها.

لأمرٍ ما رددتَ الخيلَ عنهم
وقد جُعلت محاينُهم تَحينُ[2]
وأُسوتُكَ الرسولُ وإنْ يشكوا
فعِند جُهينةَ الخبرُ اليقينُ
ثَناها عنْ ثقيفٍ والعوالي
بهمْ لجبٌ ودونهُم رنينُ
فوافاهُ بهم ظمأ وهوفٌ

1 سورة الفتح: الآيات ٢٤- ٢٧.

2 محاينهم: مصارعهم وآجالهم.

ومقـــــدارٌ أتَـــــى بهـــــمُ وحَـــــيْنُ[1]

وهـــــادنَ أهـــــلَ مكـــــةَ عـــــنْ حِماهـــــا

وقـــدْ تكفـــي عـــن الحـــربِ الهُـــدونُ[2]

فمـــــا بَرحـــــوا بهـــــا حتّـــــى أتوهـــــا

تُـــــثيرُ النّقـــــعَ موعـــــدها الحُجـــــونُ[3]

فـــــإن تُحـــــرزْ طُليطلـــــةُ اللّيـــــالي

فـــــسيفُكَ يـــــا علـــــيُّ بهـــــا ضَـــــمينُ[4]

ب- النوع الثاني: ويقصد منه مدح الرسول الكريم مباشرة مع ذكر صفاته وأعماله والأحداث التي جرت في زمانه، ويسمى هذا النوع من الشعر بـ (المديح النبوي). وقد ظهر هذا اللون من المديح في الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري، وكان معروفاً في المشرق، ولعل شيوعه في هذا القرن "يعود إلى الهزائم المتلاحقة التي مني بها الحكم الاسلامي خلال هذا العصر في الأندلس، واليأس من مقدرة الحكام المسلمين على صد الأعداء وحماية ما بقي بيد المسلمين من المدن، فالتجأت النفوس المؤمنة بالله واليائسة من خير الحكام إلى التشفع بالنبي والاستنجاد به في تلك المحن"[5].

وتدور معاني قصيدة المديح النبوي حول فضائل الرسول وكرمه، وشجاعته، وزهده، ومنزلته عند الله والأنبياء والمرسلين وبين الناس أجمعين،

---

1 ظمأ: ليس في كتب السيرة ما يوضح حقيقة هذا الظمأ. وأما الخوف فإنهم رأوا الناس قد أسلموا فقالوا: لا طاقة لنا بهذا الرجل وعزموا على إرسال وفد إلى الرسول.

2 يشير إلى صلح الحديبية.

3 الحجون: جبل بأعلى مكة.

4 الأعمى التطيلي: ديوانه ٢٠٤- ٢٠٥ (ق٦٣).

5 د. حكمة الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ٢٣٥.

ومعجزاته منها: انصداع إيوان كسرى، وانشقاق القمر، وتفجر الماء بين أنامله الشريفة، وحنين جذع النخلة إليه وتسبيح الحصى بين راحتيه، وكلام الضب والذئب والغزال وذراع الشاه المسمومة معه، وعشو أعين الكفار يوم خروجه من مكة، ونسج العنكبوت وبيض الحمامة في باب الغار، والحديث بإسهاب عن معجزة الإسراء والمعراج، وبأسلوب قصصي يصوّر حال الكون، والناس من حوله يشهدون هذا الحدث العظيم.

وقد وردت بعض معجزاته في القرآن الكريم ـ لا سيما معجزة الإسراء والمعراج. وقد أوردنا في الفصل الثاني شرحاً وتفصيلاً لها.

ومن الأمداح النبوية التي تشير إلى معجزات النبي محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ ومآثره ومنها معجزة الإسراء والمعراج، وبأسلوب يشيع فيه الحوار القصصي قصيدة ابن الخبازة، أبي عمرو ميمون بن علي (٦٣٧ هـ) قال:

وَجاراهُ في الإسراء عنها نبيُّنا
وألهمها فوقَ السَّماواتِ سارِيا
فلمّا انتهى جبريلُ عندّ مقامهِ
بحيثُ تلقى الأمرَ ألاّ تَماديا
أشارَ على المُختارِ أن سِرْ فإنّهُ
مقامي لا أعدوهُ ما دُمتَ باقيا
فناداهُ يا جبريلُ: هَل لكَ حاجةٌ
إلى اللهِ فاسألها لتُعطى الأمانيا
فقال له: سلهُ لا بسط رغبة
على النارِ منّي للعُصاةِ جناحيا

فـــــدُلي في آفـــــقِ المهامـــــهِ رفـــــرفُ

وزجَّ بـــــراقُ العِـــــزِّ في النُّـــــورِ راقيـــــا[1]

ومن القصائد التي قيلت في الإسراء والمعراج أيضاً قصيدة ابن الجنان الأنصاري، محمد بن محمد (٦٤٨ هـ) ويبدأ في كل بيت منها بلفظ (سلام)، ويذكر منها: طلب جبريل من النبي ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ امتطاء البراق، وكان سيره ليلاً وزيارته المسجد الأقصى، وصعوده إلى السماء ووصوله إلى سدرة المنتهى، وقربه من الله ـ تعالى ـ قاب قوسين أو أدنى، وإسناد الوحي إليه، وصلاته بالأنبياء ليلة إسرائه. قال:

ســـلامٌ علـــى مـــنْ ســـاقَ جبريـــلُ نحـــوهُ الـــ

ـــبُراق وقـــال: اركـــبْ كرمـــت مُوفَّـــدا

ســـلامٌ علـــى مـــن ســـارَ في الليـــلِ ســـيداً

فـــزارَ مـــن البيـــتِ المُقـــدّسِ مَـــسجدا

ســـلامٌ علـــى مـــنْ رحّبـــت بقدومـــهِ

ملائكـــةٌ قالـــت لـــهُ: اصـــعدْ لتُـــسعدا

ســـلامٌ علـــى مـــن حـــلَّ بالـــسَّدرةِ الـــتي

هـــي المُنتهـــى فاحتـــلَّ للـــصِّدقِ مقعـــدا

ســـلامٌ علـــى مـــن كـــانَ مـــن قُـــربِ ربِّـــهِ

كقـــابٍ ولا أيـــنٌ هُنـــاكَ ولا لـــدّى

ســـلامٌ علـــى مـــن أســـندَ اللهُ وَحيَـــهُ

إليـــهِ فعـــن إســـنادهِ الـــدين إســـندا

---

1 المقري: أزهار الرياض ٢/٣٨٥.

سـلامٌ علـى مـن أم بالرسـلِ مُمسياً

فأضحى إماماً للنبيينَ سيّدا[1]

وهناك مخمس لابن سهل الأندلسي (٦٤٩ هـ) ينتهي الجزء الأخير من كل بيت بـ (صلوا عليه وسلموا تسليما)، ويتطرق فيه إلى إسراء النبي محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ ومعراجه، ويذكر منه: حث البراق على قطع السماوات السبع، وتخوف الأرض من فراقه، ووقوفه أمام حضرة (ملك الملوك) تعالى فأصبح جار العرش المقرب إلى الله، وقد جعل قبله موسى كليماً، فكانت ليلة مسراه ليلة سبقت حركة الزمان، وارتفعت عنها الحجب، وتفتقت الأرائج فعبق مسك الليل استبشاراً بمقدمه، ولما دنت ساعة النزول واقتعد البراق ودعته السماوات وداع محب. قال:

احتثَّ في السبع الطّباقِ بُراقُهُ

والأرض واجمة تَخافُ فراقُهُ

سبحان مَن أدنى سُراهُ فساقُهُ

شخصاً على ملكِ الملوكِ كريما

صلّوا عليهِ وسلّموا تَسليما

فاشتمَّ ريحانَ القُلوبِ الطِّيبا

ودَنا فأسمع يا محمّدُ مَرحبا

إني جَعلتُك جارَ عَرشي الأقربا

إن كُنتُ قبلك قد جعلتُ كليما

صلُّوا عليهِ وسلّموا تَسليما

---

1 ابن الجنان الأنصاري: ديوانه ٨١- ٨١ ق(٩).

يـــا ليلـــة يجـــري الزّمـــانُ فتـــسبقُ
الحُجـــبُ فيهـــا والارائـــجُ تُفتَـــقُ
مـــا كـــان مـــسكُ اللّيـــلِ قبلـــكَ يقبِـــقُ
بـــشرى محمـــد اســـتفادَ نَـــسيما
صـــلّوا عليـــهِ وســـلّموا تـــسليما
حتّـــى إذا اقتعـــدَ البُـــراقَ لينـــزلا
نادتـــهُ أســـرارُ الـــسّمواتِ العُـــلا
يـــا راحـــلاً وَدعتُـــه لا عـــن قِلـــى
مـــا كـــان عَهـــدُكَ بـــالغُيوبِ ذَميمـــاً
صـــلّوا عليـــهِ وســـلّموا تـــسليما[1]

أما قصيدة ابن الشران الغرناطي، أبي عبد الله محمد (٨٣٧ هـ كان حياً) فإنها تنقل إلينا صورة متكاملة لإسراء النبي محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ عبر السموات السبع، وبأسلوب يتراوح بين السرد والحوار قال:

وليلـــة المِعـــراجِ أســـرى فَمـــا
أســـرى واســـنى شَـــرفاً في اللّيـــالْ
جـــالَ وجبريـــل أنـــيسٌ لـــهُ
مـــن الـــسماواتِ العُلـــى حيـــثُ جـــالْ
حتّـــى انتهـــى مـــن سِـــدرةِ المُنتهـــى
إلى مقـــامٍ لمْ ينلـــهُ مَقـــالْ
قـــالَ لـــهُ الـــرُّوحُ مَقـــامي هُنـــا
وأنـــتَ فاصـــعدْ لمقـــامِ الوِصـــالْ

1 المقري: نفح الطيب ٤٤٦/٧- ٤٤٧.

فقـــــالَ : يـــــا أُنـــــسيُّ افـــــردْتَني
حيـــــثُ دَهـــــتني مُدهـــــشاتِ الجَـــــلالْ
فقـــــالَ : كـــــلاّ إنّمـــــا الأنـــــس مـــــا
أنـــــتَ مُـــــوالٍ ولـــــكَ اللهُ والْ
طـــــأ حـــــضرة القُـــــدسِ اتـــــصالاً فمـــــا
أُبـــــيح مِنهـــــا لـــــسِواكَ اتّـــــصالْ
فَزجَّـــــهُ في النُّـــــورِ زجّـــــاً رأى
وراءَهُ للحـــــقِ نُـــــور الجمـــــالْ
شـــــاهدَ مـــــا شـــــاهدَ ممّـــــا ارتَقـــــى
عـــــنْ مبلـــــغِ العقـــــلِ وَوَهـــــمِ الخَيـــــالْ
فقـــــالَ قـــــومٌ بِفـــــؤادٍ رأى
وعـــــالمٌ بـــــالعينِ والقلـــــبِ قـــــالْ
ولـــــيسَ ذا وهـــــو مُحـــــالٌ علـــــى
حـــــالِ مقـــــامِ الحُـــــبِّ ممـــــا يُحـــــالْ
حيـــــثُ تـــــدنّى قـــــابَ قوســـــينِ أو
أدنـــــى نَجيّـــــا في ظـــــلال الـــــدّلالْ
وبعـــــدما في الـــــنجمِ يُتلـــــى عـــــلا
ثـــــم أتـــــى والـــــنّجمُ في الأفـــــقِ عـــــالْ
وباحتمـــــالِ الجـــــسمِ والـــــرُّوحِ في
مَـــــسراهُ صـــــحَّ القـــــولُ دُونَ احتمـــــالْ[1]

---

1 المقرى: أزهار الرياض ١/١٣٩- ١٤٠.

(٢) الغزل:

هو تعبير عن أثر الجمال الأنثوي في النفس بأسلوب فني بديع يضاف إليه وشي من نسيج خيال الشعراء، وهذا التعبير إما أن يكون تصويراً لمشاعر المتأثر أو المحب، وما يعانيه من مواجد وأشواق تجاه الحبيب، وما يلاقيه من مصاعب وآلام من جراء البعد والصد، وهذا النوع من الغزل يسمى بالغزل العفيف، وإما أن يكون وصفاً دقيقاً لمفاتن أعضاء جسد المرأة، وحركتها وحديثها ويسمى هذا النوع بالغزل الحسي.

وقد يسرف بعض الشعراء في إظهار جمال المرأة المحسوس، وقد يكون سببه عائداً إلى "قلة فهم الناس للجانب النفسي من حياة المرأة وخصائصها فلم يعد المحبون منهم يستشعرون إلاّ الحسي الملموس، أي الصورة البدنية، فاندفعوا في الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يرد"[1].

وفن الغزل مثل غيره من الفنون الأخرى قد تأثر بالقصة القرآنية، ولا سيما تلك القصص التي يكون فيها للمرأة أثر في مجرياتها مثل: قصة يوسف وامرأة العزيز، وموسى وابنتي شعيب، وسليمان وبلقيس، فيحاكي الشاعر تلك الشخصيات في غزله.

ومن القصص القرآنية التي تأثر بها شعراء الغزل قصة الملكين هاروت وماروت، وورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿ولّما جاءهم رسول من عند الله مُصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمونُ واتبعوا ما تتلّوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكنَّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يُعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر فيتعلمون منهما ما

---

1 بالثنيا: تاريخ الفكر الأندلسي ٤٤.

يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله ويتعلّمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾[1].

وفي التفسير: "(واتبعوا) أي نبذوا كتاب الله واتبعوا (ما تتلوا الشياطين) يعني واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها (على ملك سليمان) أي على عهد ملكه وزمانه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دونوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس... (وما كفر سليمان) تكذيب للشياطين، ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفرا (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه. (يعلمون الناس السحر) يقصدون به إغواءهم وإضلالهم (وما أنزل على الملكين) عطف على السحر... وقيل: هو عطف على ما تتلوا أي واتبعوا ما أنزل (هاروت وماروت) عطف بيان للملكين علمان لهما. والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً.

وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبهاه، وينصحاه ويقولا له (إنما نحن فتنة) أي ابتلاء واختبار من الله (فلا تكفر) فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر (فيتعلمون) الضمير لما دل عليه من أحد. أي فيتعلم الناس من الملكين (ما يفرقون بين المرء وزوجه) أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه كالنفث في العقد. ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشور والخلاف ابتلاء منه"[2].

---

1 سورة البقرة: الآيتان ١٠١- ١٠٢.

2 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ١/١٧٢- ١٧٣.

وفي القصص: "قال المفسرون: أن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك في زمن إدريس النبي - عليه السلام - عيروهم بذلك وأنكروا عليهم، وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض، واخترتهم فهم يعصونك، فقال تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركّبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتهم مثلما فعلوا. قالوا: سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركما أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت وكانا أصلح الملائكة وأعبدهم... قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتنا وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النساء. قال علي - رضي الله عنه - كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلادها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها، فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك، فقالت: لا إلاّ أن تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث، ومعها قدح من خمر وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها، فراوداها عن نفسها فأبت، وعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله أمر عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا الخمر فانتشيا، ووقعا بالمرأة وزنيا بها، فرآهما إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم. فمسخ الله الزهرة كوكباً... قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا إلى إدريس - عليه السلام - فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى، وقالا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله تعالى. قال: ففعل إدريس

ذلك فخيّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع فهما ببابل يُعذّبان"[1].

وقد تأثر الشعراء بالفتنة التي ابتلي بها الملكان هاروت وماروت، والفتنة التي أثاراها بين الناس بتعليمهم فنون السحر وإن كانا يحذرانهم من فتنتها ويطلبان منهم أن لا يكفروا بالله، ولكن تمادي بعض الناس وقبولهم بالمعصية يدعوهم إلى تعلم ما يخص الشر دون الخير مثل ما يفرق بين المرء وزوجه. وهكذا تحولت لفظة هاروت عند الشعراء إلى رمز الفتنة أو السقوط فيها. ومن هؤلاء الشعراء: مؤمن بن سعيد (٢٦٧ هـ)، ففي أبيات له يخاطب بها منصوراً المغني ويطلب منه أن يرى ابن القط أبا القاسم أحمد بن معاوية بن هشام ويحكم له بجماله على البدر، لأن الرحمن لم ير في خلقه أحسن منه، ويقسم بالبيت الحرام أن هاروت قد حل في طرفه ينفث سحراً، فمن يَرَه يفتتن به فيفقد عقله قال:

قُولا لمنصورٍ أبا نَصرِ
بِحُرمةِ المِضرابِ والوتَرِ
ألا حكمتَ اليومَ لابنِ الذي
لُقّب بالقِطِّ على البّدرِ
ما إن يرى الرحمنُ مِنْ خَلقهِ
أحسن منهُ ياأبا نَصرِ
لا والذي طافتْ قُريشٌ بهِ
بالبيتِ في أيّامهِ العشرِ

1 الثعلبي: قصص الأنبياء ٣٠- ٣١.

كأنّمـــــــا هـــــــاروت في طَرفـــــــهِ

إذا رَنـــــــا ينفُـــــــثُ بالـــــــسِّحرِ[1]

وكذلك قول الشريف الطليق، أبي عبد الملك مروان بن عبد الرحمن (٤٠٠ هـ تقريباً) في إنسان أجفان حبيبته المتحير وكأنما قد حل فيه هاروت كما حل ببابل ينفث سحراً وفتنة بين الناس:

كأنمـــــــا إنـــــــسانُ أجفانهـــــــا

للخمـــــــرِ مـــــــنْ تحييرهـــــا مُـــــدمنُ

ولـــــــيسَ إنـــــــساناً ولكنّـــــــهُ

هـــــــاروتُ في مُقلتهـــــا يَـــــسكنُ[2]

ويوسع الحصري الضرير، أبو الحسن بن علي بن عبد الغني (٤٤٨ هـ) المعنى ويرى هاروت قد حل في جسد حبيبته كله وصار هو هاروت بنفسه ففتن الناس بعينه. فقال متغزلاً في غلام اسمه هارون:

يـــــــا غَـــــــزالاً فـــــــتنَ النّـــــــا

سَ بعينيـــــــــــــهِ فُتُونـــــــــــــا

أنـــــــتَ هـــــــاروتُ ولكـــــــنْ

صـــــــحّفوا تـــــــاءكَ نُونـــــــا[3]

---

1 ابن حيان: المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ١٣٨ اعتنى بنشره الأب ملشور أنطونية. ط بولس كتنر، باريس ١٩٣٧.

2 ابن الآبار: الحلة السيراء ٢٢٥/١ تحقيق د. حسين مؤنس، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤.

3 ابن الصيرفي: المختار من شعر شعراء الأندلس ١٣١ حققه وقدم له هلال ناجي. مجلة المورد. العدد الرابع لسنة ١٩٧٥.

ويتطرق البلوي، أبو عبد الله محمد بن محمد (٧٠٠ هـ) إلى ذكر نوع الفتنة التي يثيرها الحبيب الظالم ذو اللحظ البابلي، وهي أنه قد حلل الهجر والفراق بين الحبيبين بعد طيب الوصال بينهما حين رمى بنبال عينيه فأصاب فؤاده كما حلل هاروت بالسحر والفتنة ما يفرق المرء وزوجه. قال:

مَنْ مُجيري منْ لَحظِ ريمٍ ظلُومِ
حلّلَ الهجرَ بعدَ طيبِ الوِصالِ
ناعسُ الطّرفِ أسمرُ الجفنِ منّي
طالَ منهُ الجَّوى بطولِ اللّيالي
بابليُّ اللّحاظ أصمى فُؤادي
ورَماهُ منْ غنجهِ بنبالِ
وكسا الجسمَ مِنْ هواهُ نُحولاً
قصدهُ في النّوى بذاك النّحالِ[1]

ويطغى هاروت من عبثه ونفثه السحر من الألحاظ فتعبث بقلوب المحبين، فلا قرار لهم ولا تحرر منها، فإن أراد أحد المحبين السلو منعنه ودفعنه إلى دين التصابي، وإن أراد التحرر من حبه قيدنه إليه، وإن أراد التباطؤ والتأخر عنه جعلنه يسرع إليه، إنها فتنة هاروت. قال أبو حيان محمد بن يوسف (٧٤٥ هـ):

ألا إنَّ ألحاظاً بقلبي عَوابثا
أظنُّ بها هاروت أصبحَ نافثا
إذا رامَ ذو وجدٍ سُلّواً منعنهُ
وكُنَّ على دينِ التّصابي بَواعثا
وقيدْنَ من أضحى عن الحُبِّ مُطلقاً

1 ابن الخطيب: الإحاطة ٣٨٢/٢.

وأســـرعنَ للبلـــوى بمـــنْ كـــانَ رائِثـــا[1]

وفي قصة يوسف ـ عليه السلام ـ جوانب بارزة يمكن لشعراء الغزل أن يستوحوها في شعرهم، من هذه الجوانب مراودة امرأة العزيز ليوسف وهو في بيتها. كما في قوله تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ولقد همّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيّدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إنّ كيدكُنّ عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾[2].

ويتناول هذا الجانب من القصة ابن الزقاق البلنسي، أبو الحسن علي بن عطية (٥٣٠ هـ) ويحاكيه في تغزله بمحبوبه الأغن المهفهف الضامر الحشا. قال:

بـــأبي وغـــير أبـــي أغـــن مُهفهـــفٌ

مَهـــضومُ مـــا خلـــفَ الوشـــاحِ خَميـــصُهُ

لـــــبسَ الفـــــؤادَ ومزَّقتـــــهُ جُفونُـــــهُ

فـــأتَى كيُوســـفَ حـــينَ قُـــدَّ قميـــصهُ[3]

وشاع خبر امرأة العزيز وهي تراود فتاها، وأخذت نسوة في المدينة في

---

1 أبو حيان الأندلسي: ديوانه ٤٣٤ ورائثا: مبطئاً من الريث وهو الإبطاء.

2 سورة يوسف: الآيات: ٢٣- ٢٩.

3 ابن الزقاق البلنسي: ديوانه ١٩٦ (ق ٦٠) تحقيق عفيفة محمود ديراني، مطبعة سميا، بيروت ١٩٦٤.

الطعن والتشنيع عليها في حبها لفتاها. قال تعالى: ﴿وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبينٍ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريمٌ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين﴾[1].

ويأخذ عبد الله بن اسماعيل بن بدر (من شعراء الدولة الأموية) هذا الانبهار من الحسن، والتهيب في حضرة الجمال، ويضعه في طلعة محبوبه الذي كان يسمع عنه دون ذكر اسمه خوفاً عليه من التصريح بذكره، حتى إذا أبصره أكبره، فلم يفطن إلى أنه من البشر، وظن أنه ملك كريم. قال:

أشكو إلى اللهِ مِن سَمعي ومِنْ بَصري
ما يجلبانِ إلى قلبي مِنَ الفِكرِ
قدْ كنتُ أسمعُ عمّنْ لستُ أذكرهُ
خَوفاً عليهِ مِنَ التّصريحِ بالذّكرِ
سمعتُ حتّى إذا أبصرتُ قلتُ لهُ:
يا حاشى للهِ ما هذا مِنَ البشرِ[2]

وكذلك قول الشاعر الرمادي، يوسف بن هارون (٤٠٣ هـ) في محبوبه الذي بدا في ثوب لازوردي، فبهره، وكبّر من فرط جماله كما كبّرت

---

1 سورة يوسف: الآيات ٣٠- ٣٢.

2 الثعالبي: يتيمة الدهر ١٣/٢.

النسوة من يوسف فرد عليه أن لا ينكر منظره فهو طبيعي جداً، زرقة السماء أحاطت بالبدر ليلة كماله.

قال:

لمّـــــــــــا بَـــــــــــدا في لازورْ

ديِّ الحريـــــــــرِ وقـــــــــدْ بَهـــــــرْ

كبّـــــــرتُ مِـــــــنْ فـــــــرطِ الجَمـــــــا

لِ وقلـــــــتُ: مـــــــا هـــــــذا بـــــــشرْ

فأجـــــــــــابني: لا تُنكـــــــــــروا

ثـــــوبَ الـــــسّماءِ علـــــى القمـــــرْ[1]

ويتوسع ابن سهل الأندلسي (٦٤٩ هـ) في عرض الصورة التي أثارت الانبهار والإعجاب بحسن محبوبه (موسى)، ويحاول أن يستكمل كل جوانبها من تورد خدي المحبوب حياء، واكتمال نور وجهه، وانسدال شعره كأنه حرف السين، وهذه الملامح في الحسن لا تختلف كثيراً عن ملامح يوسف ـ عليه السلام ـ وهؤلاء الناس في إشبيلية ـ مثل نسوة المدينة ـ قد نهوه عن حُب موسى وعذلوه، فإن بدا عليهم عذروه في حبّه، وأكبروا محبوبه ولم يقطعوا أكفهم مثلما قطعت النسوة أيديهن بالسكاكين، وإنما قطعوا قلوبهم بالجفون. قال:

إنّ نـــــارَ الحيـــــاءِ في خـــــدِّ مُوســـــى

جنّـــــةٌ تثمـــــرُ المُنـــــى كـــــلَّ حـــــينِ

---

1 الرمادي يوسف بن هارون: شعره ص ١٣٦ (ق ١٤٠)، ووجدت الأبيات منسوبة لأبي حفص أحمد بن برد (٤١٨ هـ) ينظر: ابن خاقان: مطمح الأنفس ٥٠ وابن بسام: الذخيرة ق ٥٠٥/١/١- ٥٠٦ وابن دحية: المطرب ١٢٩ والمقري: نفح الطيب ٤٥٦/٣.

بـــــــدرُ تمٍّ لـــــــهُ تمـــــــائمُ كانـــــــتْ

وهـــــي بـــــرءُ الجنـــــونِ أصـــــلَ الجنـــــونِ

كتـــــبَ الـــــشعرُ فيـــــه ســـــيناً فعـــــوّذْ

تُ بياســـــينِ حـــــسنَ تلـــــكَ الـــــسّنِ

كـــمْ نهـــاني عـــنْ حـــبِّ مُوســـى أنـــاسٌ

عـــــذلوني، فـــــإنْ بَـــــدا عـــــذروني

أكـــــــبروهُ ولمْ تقطّـــــــعْ أكـــــــفٌّ

بِمـــــدىً بـــــلْ قُلـــــوبُهم بِجفُـــــونِ[1]

وتعود قافلة أخوة يوسف إلى مصر لإيفاء الكيل، ولرد أخيهم (بنيامين) إلى أبيه، ولكنهم فوجئوا بيوسف وهو العزيز في مصر، وقد ضم إليه أخاه فاعترفوا بذنبهم، وندموا على فعلتهم، فعفا عنهم، وإن الله غفور رحيم، ثم أمرهم أن يأخذوا قميصه ويلقوه على وجه أبيهم يرتد بصيراً. كما في قوله تعالى: ﴿اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعينُ ولّما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدونُ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمونُ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إن كنا خاطئينُ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم﴾[2].

وفي القصص: "أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذي يلي جسده، فيضعوه على عيني أبيه، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب، بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات، وأكبر المعجزات... ولما خرجت العير

---

1 ابن سهل: ديوانه ٢١٢ (ق٨٣).

2 سورة يوسف: الآيات ٩١- ٩٨.

هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أي تقولون إنما هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن..."[1].

ويجد الشعراء في قميص يوسف وريحه وإلقائه على وجه يعقوب صورة يمكن محاكاتها في حالتي الافتراق والبعد بين الحبيبين، والاكتفاء برؤية بعض حاجات المحبوب مما يولد لدى المحب القناعة والرضا. وفي ذلك يقول ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦ هـ): "ولا بد للمحب إذا حرم الوصل من القنوع بما يجد، وأن في ذلك لمتعللاً للنفس، وشغلاً للرجاء، وتجديداً للمنى وبعض الراحة"[2].

ولما منع من التقرب من محبوبه، وبدافع من الهجر المتعمد منه، أخذ يقلّب بصره بين أثوابه وحاجاته، لعله يجد ما يرضي النفس ويريحها، مثله مثل يعقوب حين شفّه الحزن على يوسف شمّ قميصه فارتد بصيراً. قال:

لمّا مُنعتُ القربَ منْ سيّدي
وَلجَّ في هَجري ولمْ يُنصفِ
صِرتُ بإبصاري أثوابَهُ
أو بعضَ ما قدْ مسَّهُ أكتَفي
كذاكَ يعقوب نبّي الهُدى
إذْ شفّهُ الحُزنُ على يُوسفِ
شمَّ قميصاً جاءَ منْ عِندهِ
وكانَ مكفوفاً فَمنهُ شُفي[3]

---

1 ابن كثير: قصص الأنبياء ٢٥٩- ٢٦٠.

2 ابن حزم: طوق الحمامة ١٨٥.

3 المصدر نفسه ١٨٧.

وكذلك قول ابن غيّاث، أبي عمرو محمد بن عبيد الله (٦١٩ هـ) وقد استبدل قميص يوسف بدار الأحبة لأنها تذكره بهم، وتحمل رائحتهم. قال:

هـــذي الجفُـــونُ لأيّ شـــيءٍ تَـــذرفُ
ولعلّهـــــا دارَ الأحبّـــــةِ تَعـــــرفُ
مـــنْ أيـــنَ نَعرفُهـــا وقـــدْ عُميـــتْ أســـيً
أقميـــصهُ ألقـــى عليهـــا يُوســـفُ؟[1]

ونجد في بعض جوانب قصة النبي موسى ـ عليه السلام ـ صوراً جديدة تضاف إلى معاني الغزل، منها إعطاء الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ما سأله إياه قبل الذهاب إلى فرعون من شرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة لسانه، وجعل هارون وزيراً له. قال تعالى: "قال رب اشرح لي صدري. ويسر لي أمري. واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيراً. ونذكرك كثيراً. إنك كنت بنا بصيراً. قال قد أوتيت سؤالك يا موسى"[2].

ويأخذ هذا الجانب من القصة ابن سهل الأندلسي (٦٤٩ هـ) وجوانب أخرى، ويوظّفها في تغزله في فتى وسيم من إشبيلية يدعى (موسى بن عبد الصمد) ويرى أن قضاء الله وتقديره هكذا جاء، بأن يعطى هذا الفتى ما يريد، وأن يشقى هو عليه، مثلما أوتي موسى ـ عليه السلام ـ ما أراد، فإن أراد هذا الفتى إن يقصيه فهو نفار من رشأ، وإن أراد أن يضنيه فهو محاق من قمر، ولكنه سيأخذ منه يوم القيامة. قال:

جَـــرى القَـــضاءُ بـــأن أشـــقى عَليـــكَ وقـــد
أُوتيـــتَ سُـــؤلكَ يـــا مُوســـى علـــى قـــدرِ

---

1 ابن الآبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم ١٢٩.

2 سورة طه: الآيات ٢٥- ٣٦.

إن تُقـــصِني فَنِفـــارٌ جـــاءَ مـــنْ رشـــأٍ

أو تُـــضنني فمحـــاقٌ جـــاءَ مـــنْ قمـــرِ

سأقتـــضي منـــكَ حقّـــي في القيامـــةِ إنْ

كانـــتْ نجـــومُ الـــسّما تُجـــزى عـــنِ البـــشرِ[1]

وينتقل ابن سهل في تغزله في موسى إلى الجوانب الأخرى من القصة وهي: تحول العصا إلى حيّة تسعى، وشق اليم بعصاه ليغرق فرعون فيه. قال تعالى: "فاتبعوهم مشرقين. فلما ترآى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطّود العظيم. وأزلفنا ثمّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثمّ أغرقنا الآخرين"[2].

وقال تعالى: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل فأتبعهمُ فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتّى إذا أدركه قال آمنت أنّه لا إله إلاّ الذى آمنت به بنو إسرايل وأنا من المسلمينُ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدينُ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً وإنَّ كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون﴾[3].

وقد أمعن ابن سهل في تغزله في (موسى) حتى استوفى فيه قصة سميه الكليم موسى - عليه السلام - ولعل هذا الإمعان يعود إلى أن "الذوق الجمالي في أشبيلية حينئذ قد أخذ يلتفت إلى جمال الغلمان أكثر من التفاته إلى جمال المرأة، أو لعل هذه الصورة من تحيز ذوق ابن سعيد المؤرخ الأدبي لتلك الفترة، وأغلب تلك الأوصاف كان امتحاناً للقدرة على الإتيان بتشبيه مبتكر أو معنى جديد"[4].

---

1 ابن سهل: ديوانه ١٤٩ (ق٤٤).

2 سورة الشعراء الآيات ٦٠- ٦٦.

3 سورة يونس: الآيات ٩٠- ٩٢.

4 ابن سهل: ديوانه (المقدمة) ١٧.

وينقل إلينا ذلك التماثل بينه ومحبوبه وبين موسى وفرعون في قصيدة، ويتوجع من ألحاظ محبوبه التي فعلت فيه فعل عصا الكليم، حين تحولت إلى حيّة تسعى لقلبه فتلسع فيه، وتميل ظبى ألحاظه على بحر الهوى فتشقه شقاً، حتى إذا نزل إليه مغرراً فيه بالنجاة أغرقته تلك الألحاظ وجنود صبره في ذلك البحر، ولما دعاه مثل فرعون أنه آمن بحبه، ولكن هيهات فإيمان الشجي لن ينجيه من الغرق. قال:

لَنفسي فِدى مُوسى وإنْ لمْ تُبقِ لي
ألحاظُه نَفساً بها أفديهِ
يَهدي إلى دينِ الصُّباةِ وحسنُه
آيٌ يضلُّ بهنَّ مَنْ يهديهِ
فعلتْ فِعالَ عصا الكليمِ لحاظُهُ
بمُصدّقٍ دعواهُ لا يعصيهِ
تسعى لقلبِ الصَّبِّ منها حيَّةٌ
أودتْ بهِ لَسعاً فمَنْ يرقيهِ
شقّتْ ظُبى ألحاظِهِ بحرَ الهَوى
شقَّ العَصا للصَّبِّ كي تُرديهِ
حتّى إذا أمعنتُ فيهِ مغرَّراً
أغرقنني معَ جُندِ صبري فيهِ
فدعوتُه: إني بحُبكَ مُؤمنٌ
لو أنّ إيمانَ الشَّجي يُنجيهِ[1]

وقد استغرق ابن سهل جل قصائده في (موسى) مستغلاً ثقافته الدينية

1 ابن سهل: ديوانه ٢٦٧ (ق١٢٢).

والقرآنية، لا سيما قصص الأنبياء وبخاصة قصة موسى ـ عليه السلام ـ في إبراز ومعاني حبه له[1]، ولقد ظن بعض المتأخرين أنّ موسى هذا قد يكون رمزاً أوجده الشاعر ليعبّر به عن حبه لموسى ـ عليه السلام ـ ومنهم الأفراني في قوله "ويحتمل أن يكون نبي الله موسى عليه السلام"[2] وذلك لأن ابن سهل كان يهودياً ثم أسلم، وأقبل على الثقافة العربية والإسلامية ينهل منها في عدد من مساجد أشبيلية وحلقاتها العلمية.

والاحتمال برمزية (موسى) غير ممكن، وذلك لأن ابن سهل لم يكن متصوّفاً، ولم يكن في شعره ما يدل على ذلك، كما أن شخصية (موسى) المتغزل به لها وجود في حياة ابن سهل. وقد شهد ابن سعيد أنه كان ذات يوم يُماشي صديقه "وإذا بموسى اليهودي الذي اشتهر بحبه قد أقبل من الحمام"[3] وفي ديوان ابن سهل أن (موسى) قد كلف الشاعر بعمل موشحة فيه. فهو إذن شخص كان معروفاً في أشبيلية، وقد نال جماله إعجاب أهلها، وتغزَّل فيه شعراؤها، منهم أبو بكر بن حجاجا الغافقي الذي يقول فيه:

مِنْ مُبلغٌ مُوسى المليحَ رسالةً

بُعثتْ لهُ من كافري عُشاقهِ

ما كانَ خلقٌ راغباً عنْ دِينهِ

لو لمْ تكُنْ توراتُهُ مِنْ ساقِهِ[4]

ومنهم الوشاح الزجال أحمد المقريني المعروف بالكساد الذي تغزل فيه بقوله:

---

1 ينظر: ديوانه: ٨٤، ٩٩، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٩، ٢١٥، ٢٣٨، ٢٥٧.

2 الأفراني: المسلك السهل في توشيح ابن سهل ١٧ ط فاس ١٣٢٤ هـ.

3 ابن سعيد: اختصار القدح المعلى في التأريخ المحلى ٧٨ تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٩.

4 ابن سعيد: المغرب ٢٦١/١.

مـــــا لمُوســـــى قـــــدْ خـــــرَّ للهِ لمّـــــا

فـــــاضَ نُـــــوراً غـــــشاهُ ضـــــوء ســـــناهُ

وأنـــــا قـــــدْ صـــــعقتُ مـــــنْ نـــــورِ مُوســـــى

لا أطيـــــــقُ الوقُـــــــوفَ حـــــــينَ أراهُ[1]

وقد تأثر الكسّاد في صعقه من نور فتاه موسى، بتجلي النور الإلهي للجبل الذي دك، وخر موسى ـ عليه السلام ـ مغشياً عليه. كما في قوله تعالى: ﴿ولمّا جاء موسى لميقاتِنا وكلّمه ربُّه قال ربِّ أرنى أنظر إليكَ قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرَّ مكانه فسوفَ ترانى فلمّا تجلى ربُّه للجبل جعله دكّا وخرَّ موسى صَعقاً فلمّا أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أوّلُ المؤمنين﴾[2]

وتأثر قبله بهذه الصورة أيضاً الأسعد بن إبراهيم بن بلطية (٤٤٠ هـ) في تغزله بمحبوبه فقال:

ألا بـــــأبي رشـــــاً مـــــرَّ بـــــي

وكنـــــــتُ إلى لمحـــــــهِ شـــــيّقا

فمـــــادتْ بـــــيَ الأرضُ مـــــنْ هيبـــــةٍ

وكـــــادتْ دِمـــــائي أنْ تُزهقـــــا

كـــــأنّي (مُوســـــى) دعـــــا ربَّـــــهُ

فألزمـــــــهُ الـــــــرَّوعُ أنَّ يُـــــــصعقا[3]

---

1 المقري: نفح الطيب ٦١/٤.

2 سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

3 العماد الاصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر ١٧٣/٢/٤ تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٩.

وتجد قصة النبي سليمان ـ عليه السلام ـ طريقها إلى الغزل، لا سيما في إذعان بلقيس ملكة سبأ إلى حكمه، وقبولها لإرادته، ومجيئها لتقديم الولاء إليه، فأراد سليمان أن يظهر لها فضل الله عليه ومنّته، فنقل عرشها إليه قبل أن تصل، ليتخذ من ذلك حجة على نبوّته، وأدخلها الصرح المبني من الزجاج الأبيض الشفاف، فلما رأته حسبته موجة من أمواج البحر، فكشفت عن ساقيها خوفاً من البلل، فتأكدت من عظمة الله وقدرته واعترفت بظلمها لنفسها بما سلف من كفرها، فأسلمت لله تعالى. قال تعالى: ﴿قيلَ لها ادخلي الصّرح فلمّا رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرّد من قوارير قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[1].

وفي القصص: "وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه السمك وغيره من دواب الماء ـ وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه... وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشّعوا منظرها عند سليمان، وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر، فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان، فتتسلط عليهم معه"[2].

وإذا نظرنا إلى ما رافق هذه القصة من مقدمات أسطورية بعضها مستمد من تصورات المؤرخين فيما يتعلق بولادتها، وبعضها مستمد من الإسرائيليات فيما يتعلق بزيارتها لسليمان ـ عليه السلام ـ لوجدناها روايات أكثرها يعتمد على الخيال ولا يتفق مع تفسير الحقائق العلمية.

وينقل أبو بكر بن سكن الشلبي صورة بلقيس إلى صورة إحدى

---

1 سورة النمل: الآية ٤٤.

2 ابن كثير: قصص الأنبياء ٥٠٦- ٥٠٧.

الجواري، وهي تعبر نهر شلب من جهة الجسر، فكأنها بلقيس وهي على شاطئ النهر وافت صرحها، لو أنها كشفت عن ساقيها. قال:

وعقيلةٍ لاحت بشاطئِ نهرِها
كالشّمسِ طالعةً لدى آفاقها
وكأنها بلقيس وافتْ صَرحَها
لو أنّها كشَفت لنا عن ساقِها[1]

ويقص علينا ابن شرف، أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد (٥٣٤هـ) حكايته مع الأمير المعز بن باديس حين طلب منه أن يصنع شعراً في الشعر الخفيف المنتشر في ساقي بعض النساء، فقال: واستخلانا المعز يوماً (يعني وصاحبه ابن رشيق القيرواني) ـ وقال لنا: أحب أن تصنعا لي شعراً تمدحان فيه الشعر الرقيق الخفيف، ربما كان في ساقي بعض النساء، فإني استحسنه، وقد عاب بعض الضرائر بعض من هذا فيه، وكلهن قارئات كاتبات، فأحب أن أريهن هذا، وادعي لهن أنه قديم، لأحتج به على من عابه، وأسرُّ به من عيب عليه، فانفرد كل منا، وأتممنا الشعرين في الوقت، فكان الذي صنعته أنا:

وبلقيسيةٍ زينتْ بشعرٍ
يسيرٍ مثل ما يهبُ الشَّحيحُ[2]

---

1 ابن الآبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم ٤٧.

وينظر: ابن المعصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٧٠/٤ تحقيق شاكر هادي شاكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٦٨. وقد توهم المحقق في ترجمته وظنه أبا بكر الشبلي البغدادي فراح يعرّف به ويذكر مصادر ترجمته ثم يذكر أنه لم يعثر على هذين البيتين في ديوانه، ومن الطبيعي ذلك لأن أبا بكر الشلبي من شعراء الأندلس.

2 بلقيسية: نسبة إلى بلقيس ملكة سبأ.

دقيـــــــــــقٍ في خدلجـــــــــــةٍ رداحِ

خفيـــــفٍ مثـــــل جـــــسمٍ فيـــــهِ رُوحُ[1]

حَكـــــى زغـــــبَ الخـــــدودِ وكُـــــلُّ خـــــدٍ

بـــــــهِ زغـــــــبٌ فمعـــــــشوقٌ ملـــــــيحُ

فـــــإنْ يـــــكُ صـــــرحُ بلقـــــيسٍ زُجاجـــــاً

فمـــــن حـــــدقِ العيـــــونِ لهـــــا صـــــروحُ[2]

ومن المعاني التي أدخلها الشعراء إلى الغزل فكرة: (البعث أو النشور بعد الموت) التي تبنى عليها قصة أصحاب الكهف. وقد وردت قصتهم في قوله تعالى: ﴿أمْ حسبت أنّ أصحابَ الكهفِ والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً إذْ أوى الفتية إلى الكهفِ فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيء لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثمّ بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يومٍ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيّها أزكى طعاماً فليأتكم برزق وليتلطف ولا يُشعِرنَّ بكم أحداً﴾[4].

وجاء في جامع البيان بصدد حديثه عن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم: "اختلف أهل التأويل في معنى قوله: (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فقال بعضهم: ذلك خبر من الله تعالى، ذكره عن أهل

---

1 الخدلجة: المرأة الممتلئة الذراعين والساقين. والرداح: الثقيلة الأرداف.

2 ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائة ٢٤١ – ٢٤٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة ١٩٧٠م.

3 سورة الكهف: الآيات ٩- ١٢.

4 سورة الكهف: الآية ١٩.

الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله: (اللّه أعلم بما لبثوا) وقالوا: لو كان ذلك خبراً من اللّه عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله: (قل اللّه أعلم بما لبثوا) وجه مفهوم، وقد أعلم اللّه خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره"[1].

ويتأثر ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد اللّه (ـ٤٦٣ هـ) بالتصوير القرآني لمشهد أصحاب الكهف في رؤية المحبين الذين اقتسم معهم الحب، فأخذ الثلثين وأعطاهم الثلث منه موتى من الوجد يوم الفراق أو الهجر، وإن كانوا أحياء يرزقون، ولن يبعثوا من ميتتهم هذه إلا بوصل من يحبون. ولو لم يخفّف عنهم الشاعر بالثلثين لماتوا ميتة لا قيام بعدها ولكنه تحمل عنهم ذلك. ولهذا نراهم صرعى في أماكن خلواتهم كفتية الكهف وقد تعاقبت عليهم السنون. وهم أموات أحياء لا يدرون كم لبثوا على حالتهم تلك. قال:

أخذتُ ثُلثَ الهَوى، غضباً، وفي ثَلُثٌ
وللمحبّين ـــ فيما بينَهم ثلثُ
تاللهِ، لو حلفَ العشّاقُ: أنّهمُ
موتى مِنَ الوجدِ ـ يومَ البينِ ـ ما حَنثوا
قومٌ ـ إذا هُجروا مِنْ بَعدِ ما وصلوا ـ
ماتوا، فإن عادَ مَنْ يهوونهُ بُعثوا
تَرى المحبّينَ صَرعى ـ في عراصهمُ ـ
كفتيةِ الكهفِ: ما يدرونَ ما لبثُوا[2]

---

1 الطبري: جامع البيان ١٥٢/١٥.

2 ابن زيدون: ديوانه ورسائله ١٧٦ شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٥.

وقد عرض الشاعر فكرة الهجر والوصل في الحب، وقابل بينهما وبين الموت والبعث. ويرى علي عبد العظيم محقق ديوانه أن "الفكرة على الحالين متهافته، وهي إلى جانب هذا قديمة معادة، ويظهر أن الشاعر أحس بمغالاته فعاد إلى تشبيه المحبين بصورة أخف من الموت والهلاك حيث جعلهم كأهل الكهف لا يدرون مدى استغراقهم في النوم"[1] ولكننا لم نر الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى، أي من فكرة الموت والهلاك إلى فكرة تشبيه المحبين بأصحاب الكهف، وإنما كانت الفكرة واحدة وإن ما حدث للمحبين من الموت والبعث حدث لأصحاب الكهف كذلك.

(٣) الوصف:

هو فن التصوير وهو أصل الشعر وعموده، ويشتمل على تصوير مظاهر الطبيعة وما فيها من عمران وقصور ومنشآت مدنية وحربية، ومجالس الشرب والسمر، وأدوات الصيد والحرب، وقد عمد الشعراء إلى تعميق الامتزاج بالطبيعة وتشخيصها، ولم تعد في نظرهم مجرد أشكال وألوان، بل آخذت بعداً إنسانياً يتشكل حسب أمزجتهم وأذواقهم، ويحاكي أفراحهم وأحزانهم.

أما وصف الربيع وما فيه من أزهار وأنهار وأمطار فقد شاع بين الأندلسيين، وتغلب على حواسهم وأفئدتهم، وتسلل إلى أغلب فنون الشعر الأخرى المديح والغزل والرثاء والحنين[2].

ومن القصص القرآنية التي دخلت الوصف قصة عاد وثمود، وتتمثل قصة عاد ـ وهم قوم نبي الله هود ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: "وأمّا عاد فأهلكوا

---

1 علي عبد العظيم: ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ١٤٠.

2 أحمد حاجم الربيعي: أبو الوليد الحميري: حياته وشعره ١٧٩ مجلة المورد م ١٧ ع (١) لسنة ١٩٨٨.

بريح صرصرٍ عاتية. سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسوماً فَترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ. فهل ترى لهم من باقية"[1].

وفي القصص: "شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى بلا رأس"[2].

وتتمثل قصة ثمود ـ وهم قوم نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿كذّبت ثمود بالنّذرُ فقالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعهُ إنّا إذن لفي ضلال وسعرُ أألقى الذّكر عليه من بيننا بل هو كذّاب أشرُ سيعلمون غداً من الكذّاب الأشرُ إنا مرسلو النّاقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبرُ ونبئهم أنّ الماء قسمة بينهم كلّ شرب محتضرُ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقرُ فكيف كان عذابي ونذرُ إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾[3].

وقي القصص: "فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من ورودها كمن لها (مصرع) فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يذمرن القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم في ذلك فأسرع (قدار بن سالف) فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرّت ساقطة إلى الأرض. ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذّر ولدها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقبها ـ وهو فصيلها ـ فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً..."[4].

ويتأثر ابن محامس الكاتب، أبو عبد الله محمد بن عثمان (ـ٣٧٦ هـ) بما حدث لقوم عاد وثمود من الهلاك في وصف المصلوبين، وقد طارت هاماتهم عن

---

1 سورة الحاقة: الآيات ٦- ٨.

2 ابن كثير: قصص الأنبياء ١٠٨.

3 سورة القمر: الآيات ٢٣- ٣١

4 ابن كثير: القصص ١١٩.

أجسادهم وكأنها قطا الجو وقد صرعتها صقور سود، فصاروا جثثاً لا رؤوس لها مثل قوم عاد، وقد غودوا بريح صرصر عاتية، تراهم كأنهم جذوع نخل خاوية. أو مثل قوم ثمود حين رغا فيهم سقب الناقة، فأخذتهم الصيحة، وصاروا كهشيم المحتظر.

قال:

فطيّـــــرَ عـــــنهُم هـــــامَهُم وكأنّهـــــا

قَطـــا الجَـــوِّ أردَتهـــا أجادلُهـــا الكُهـــبُ[1]

كآثـــــارِ عـــــادٍ يـــــومَ غـــــودُوا بحاصـــــبٍ

وآلِ ثمـــــودٍ إذْ رَغـــــا فـــــيهُمُ الـــــسّقبُ[2]

وأما قصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ فإن الوصف يأخذ منها جانباً معيناً، وهو نار إبراهيم التي كانت برداً وسلاماً عليه. وكان رميه في النار لا لذنب اقترفه سوى دعوته إلى نبذ الأصنام، والتوجه إلى عبادة الواحد القهار. قال تعالى: ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلونُ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلينُ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيمُ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾[3].

وبعد جدال ومناظرة بينه وبين قومه حول عبادة الأصنام، وتغلبه عليهم في الحجة عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم

---

1 الأجدل: الصقر. الكهب: جمع أكهب وهو الأدهم أو الأغبر مع سواد.

2 ابن الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ٢٢٢ تحقيق د: إحسان عباس، مطبعة سميا، بيروت ١٩٦٦. السقب: ولد الناقة. ورغا السقب: كناية عن الهلاك.

3 سورة الأنبياء: الآيات ٦٦- ٧٠.

(قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له... ثم عمدوا إلى حوية عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت، وعلالها شرر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في كفة منجنيق... ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ولما وضع الخليل ـ عليه السلام ـ في كفة المنجنيق مقيّداً مكتوفاً ثم القوه منه إلى النار: حسبنا الله ونعم الوكيل"[1].

ويأخذ هذا المعنى محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله صاحب المرية في وصف بركة ماء فوارة بناها في الصمادحية، فانسياب الماء في صفحاتها كأنها سيف صقيل سل من غمده، واستدارتها تشبه مقلة زرقاء موصولة السهد، لا تغمض أجفانها، ولألأ الماء وهو يعكس الضوء فيها جمرة حمراء تحكي نار إبراهيم في اللون والبرد. أي لون أحمر ناري وطبيعة مائية باردة. قال:

كأنّ انسيابَ الماءِ في صَفحاتها
حُسامٌ صقيلٌ المتنِ سُلّ مِنَ الغِمدِ
تفورُ بهِ فوارةٌ مستديرةٌ
لها مقلةٌ زرقاءُ موصولة السّهدِ
أدرنا بها كأساً كأنّ حُبابَها
حُبابُ سقيطِ الطلِّ في ورقِ الوردِ
لَها في غديرِ الماءِ لألاءُ جمرةٍ

1 ابن كثير: قصص الأنبياء.

حكـــت نـــارَ إبـــراهيمَ في اللّـــونِ والـــبردِ[1]

وفي قصة يوسف ـ عليه السلام ـ يختار الوصف منها موقفاً معيناً، وهو موقف امرأة العزيز ـ وهي تراود فتاها يوسف وتناديه (هيت لك) أي هلم. وقد أوضحنا تفاصيل هذا الموقف في الغزل.

ويتناول أبو بكر بن القوطية، محمد بن عمر (من القرن الخامس الهجري) هذا المعنى في وصفه زهرة (النيلوفر)، فيضفي عليها أوصافاً أنثوية إنسانية، فهذه الزهرة ذات الجسم الذهبي المتراص، والأثواب البيض المهفهفة تبدو منطوية على نفسها نهاراً كأنها عابدة مع العبّاد، فإذا ما الليل تدانى واقترب، وآن أن يأتي محبها المتهتك، غلّقت أثوابها على نفسها وقالت: هلم.

قال:

وذاتِ جـــــسمٍ كـــــاللُّجينِ المُنـــــسبكْ

مُبيـــضّةِ الأثـــوابِ مـــن نـــسجِ البِـــرَكْ

ناســـــكةً نهارهـــــا مـــــع النـــــسّكْ

حتـــــى إذا اللّيـــــلُ تَـــــدانى واشـــــتركْ

وآنَ أنْ يـــــأتي المُحـــــبُّ المُنتهـــــكْ

غلقـــتِ البـــابَ وقالـــت : هيـــتَ لـــكْ[2]

ويأخذ هذا المعنى أيضاً ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٧٨١ هـ) في وصفه نوار اللوز حين ركب مع السلطان يوسف بخارج قصر الحمراء أيام ضربت أزهار اللوز قبابها البيض، وزينت الفحص العريض، فحاكت تلك

1 العماد الأصفهاني: خريدة القصر ٨٥ تحقيق آذرتاش آذرنوش وتنقيح محمد المرزوقي وآخرين، ط الدار التونسية، تونس ١٩٧١.

2 أبو بكر القوطية: شعره ١٠٧ صنعه هدى شوكة بهنام. مجلة المورد م ١٤ ع (١). لسنة ١٩٨٥

النواوير نجوم السماء في الليالي الحالكة الظلام. وقد أضاف الشاعر إلى ذلك أوصافاً إنسانية، فهي تُحيّي أمير المسلمين عند مروره بها، وتتحدث معه، وتدعو على من يمثله بغير نفسه بالعمى، فالأمير يوسف هو يوسف الصديق نفسه الذي حاز الجمال بأسره، وهو الذي راودته الأيام الجميلة ودعته إلى نفسها قائلة: هَيْتَ لكَ. وهو الذي قيل فيه ـ بعد أوصافه تلك ـ هل هو مليك أو ملك. قال:

أُنظـــــــر إلى النّـــــــوارِ في أغـــــــصانهِ
يحكـــــي النجـــــومَ إذا تبـــــدتْ في الحَلَـــــكْ
حيـــــا أمـــــيرُ المـــــسلمينَ وقـــــالَ: قـــــدْ
عَميـــــتْ بَـــــصيرةُ مـــــنْ بِغـــــيرِكَ مثَّلـــــكْ
يـــــا يُوســـــفاً حُـــــزْتَ الجَمـــــالَ بأســـــرِهِ
فَمحاسِـــــنُ الأيّـــــامِ تُـــــومي: هَيـــــتَ لـــــكْ
أنـــــتَ الـــــذي صَـــــعدتْ بـــــهِ أوصـــــافُهُ
فيُقـــــالُ فيـــــهِ: ذا مليـــــكٌ أو مَلَـــــكْ[1]

وتحتوي قصة موسى ـ عليه السلام ـ على جوانب متعددة، وقد اختار الوصف منها: اقتباس النبي موسى من النار، ووقوفه أمام سحرة فرعون، ودعوته على السامري باللامساس.

وتثير نارنجة نصفها أحمر والنصف الآخر أخضر رؤية الشاعر الأصم المرواني (من شعراء المائة السادسة) فيصف بنت الأيك هذه بأن قوس قزح قد قارب لثمها، وترك عليها أثراً من ألوانه، فصاغه المطر عليها لونين هما:

---

1 المقري: نفح الطيب ٥/٣٦٩- ٣٩٧.

زبرجد أخضر ونضار أصفر. فكأن موسى ـ عليه السلام ـ قد اقتبس ناراً من الوادي المقدس ووضعه في جانب من تلك النارنجة، وجاء الخضر ـ عليه السلام ـ فجرّ كفه على الجانب الآخر فتركه مخضراً. قال:

وبنـــت أَيـــكٍ دَنـــا مِـــنْ لثمِهـــا قُـــزحٌ
فَـــلاحَ منـــهُ علـــى أرجائهـــا أَثَـــرُ
تَبـــدو لِعينـــكَ مِنهـــا مَنظـــرٌ عَجـــبٌ
زَبرجَـــدٌ ونُـــضارٌ صـــاغَهُ المطَـــرُ
كـــأنَّ مُوســـى نَـــبيَّ الله اقَبـــسَها
نـــاراً، وجـــرَّ علَيهـــا كفَّـــهُ الخَـــضِرُ[1]

ومما يلاحظ أن صورة النارنجة تبدو جامدة ليس فيها شيء من المشاعر الإنسانية التي أضافها الشعراء على مثل هذه الأوصاف، وإنما هو وصف لمظهرها الخارجي فحسب.

ويأمر الله سبحانه وتعالى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون لأنه تجبر في الأرض وطغى، وأن يقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر ربه ويخشاه، ولما أراه موسى آيات ربه كذّب بها، واتهمه بالإفك والسحر كما في قوله تعالى:

﴿قالوا يا موسى إمّا أن تلقى وإما أن نكون أوّل من ألقىُ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[2].

ويصف ابن خروف، أبو الحسن علي بن محمد القرطبي (٦٠٤ هـ كان حياً) ما يحدث في يوم السبت ـ وقد وقع له ذلك أيام مقامه بدمشق مدة ـ فإذا

---

1 ابن سعيد: رايات المبرزين ٧٦ تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضي، مطابع الأهرام، القاهرة ١٩٧٣.

2 سورة طه: الآيتان ٦٥- ٦٦.

ما آذنت الجمعة بالرحيل، تأوّه عليها كل مؤمن وقور، فيأتي سبت يحاكي يوم الزينة الذي جمع فيه فرعون كل سحّار عليم بفنون السحر، وإذا أبصرنا فإننا سنبصر في ذلك اليوم كل حورية تتمايل بجسمها كأنها أرقم، وكل فتى كأنه ثعبان عظيم، فإذا انسابت تلك الأراقم نحو ذلك الثعبان تذكرنا بعد ذلك ليلاً يدوم حتى الصبح يشبه ليل اللديغ، ورأينا تلك الصورة الجميلة في أي حال حبال السحرة ألقيت نحو الكليم. قال:

إذا رَحلـــتْ عروبـــةُ عـــنْ حِماهـــا
تـــأوّه كُـــلُّ أوابٍ حَلـــيمِ
إلى سَـــبْتٍ حكـــى فِرعـــونَ مُوســـى
يُجمِّـــعُ كُـــلَّ سَـــحّارٍ علـــيمِ
فتُبـــصرُ كُـــلَّ أملـــودٍ قـــويمٍ
يَمـــيسُ وكُـــلَّ ثُعبـــانٍ عَظـــيمِ
إذا انـــسابتْ أراقمـــهُ عليـــهِ
تـــذكَّرنا بهـــا لَيـــلَ الـــسَّليمِ
وشـــاهدنا بهـــا في كُـــلِّ حَـــالٍ
حِبـــالاً أُلقيـــت نحـــو الكَلـــيمِ[1]

ويذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما كان من أمر بني إسرائيل بعد ذهاب موسى ـ عليه السلام ـ إلى ميقات ربه، فقام رجل يقال له (هارون) السامري بجمع ما عندهم من الحلي فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب

1 ابن سعيد: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ١٤٢- ١٤٣ تحقيق إبراهيم الأبياري، ط دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥.

أخذها من أثر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، وألقاها في العجل فخار كما يخور العجل الحقيقي، فسجد له كثير من بني إسرائيل، وأخذوا يعبدونه، ولما أقبل عليهم موسى، عنّفهم ووبخهم لذلك كما يتضح في قوله تعالى: ﴿قال فما خطبك يا سامريُّ قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي قال فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مِساسَ وإنّ لك موعداً لن تُخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظللتَ عليه عاكفاً لنحرقنه ثمّ لننسفنّه في اليم نسفاً إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كلّ شيء علماً﴾[1].

ويتأثر بهذا المعنى الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب (٥٧٢ هـ) في وصفة دولاب ماء (ناعورة) فإنه يُضفي عليه صفات إنسانية، فهو يحن ويئن، ويشكو ويبكي حتى يكاد من شجوه يختلس أنفاسه اختلاساً، ولكنه ببكائه يجعل الرياض ضاحكة مستبشرة، وإذا غدا لها جاراً فرّ من أمامها الجدب وهو يردد (لا مساس) وبتحذيره هذا يريد لها الخير، ولكنه في الحقيقة هو دعاء بالضر دعا موسى به على السامري لأنه أضل قومه من بعده في عبادتهم العجل، فكانت له عقوبة دنيوية. قال:

وذي حَـــــنينٍ يكـــــادُ شَـــــجواً
يَخـــــتلسُ الأنفـــــسَ اختِلاســـــا
إذا غَـــــدا لِلريـــــاضِ جـــــاراً
قـــــالَ لَهـــــا المحْـــــلُ: لا مِـــــساسا
تبـــــسّمَ الزَّهـــــرُ حـــــين يبكـــــي

1 سورة طه: الآيات ٩٥- ٩٨.

بـــــأدمُعٍ مـــــا رأيـــــنَ باســـــا[1]

وينتقي الوصف من قصة النبي سليمان ـ عليه السلام ـ موقفاً معيناً وهو دخول بلقيس ملكة سبأ الصرح الزجاجي الذي بناه فحسبته لجة وكشفت عن ساقيها، وقد تحدثنا عن ذلك في الغزل.

ويرحب ابن زهر الحفيد (عصر الموحدين) بمقدم الربيع وتفتح أزهار اللازورد الشفافة المشوبة بزرقة تشبه زرقة ماء البحر، في وسط روضة من الكتان الأبيض، فتتمايل به ريح الصبا، فيظنه الرائي الذي لا يفطن إليه لجة، فيكشف عن ساقه خوف البلل، كما كشفت بلقيس ملكة سبأ عن ساقيها لمّا قيل لها ادخلي الصرح.

قال:

أهـــــلاً بزهـــــرِ الـــــلازوردِ ومَرحبـــــاً
في رَوضـــــةِ الكَتّـــــانِ تَعطفُـــــه الـــــصَّبا
لـــــو كنـــــتُ ذا جَهـــــلٍ لَخلتُـــــكِ لُجّـــــةً
وكَـــشفتُ عـــن ســـاقٍ كمـــا فَعلَـــتْ سَـــبا[2]

(٤) الهجاء:

هو فن إبراز العيوب والصفات الممقوتة بين الناس بأسلوب سهل، وبصورة مجسمّة، تبدو أكبر من حجمها الطبيعي حتى تثير الاستغراب والتندُّر.

ولقد استعار الهجاء ما يناسبه من القصص القرآني، ومن هذه القصص قصة ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ ولقد تحدثنا عنها في الوصف.

ويضع ابن عمار (٤٧٧ هـ) بلنسية إزاء ثمود أمة صالح ـ عليه السلام ـ فقد

---

1 الرصافي البلنسي: ديوانه ١٠٣ (ق٣٢).

2 المقري: نفح الطيب ٤٦٨/٣.

غدرت به وهو الوفي بالعهود، وجاء وزيرها ابن عبد العزيز فكشف عن سوأتها فكان العار، ونكث اليمين، وهو التخلي عن أحد حصون بلاده لقاء إطلاق سراح الأسير ابن طاهر، فكانوا كأمة صالح حين عاهدته على أن يُخرج لهم ناقة ذكروا له أوصافها من صخرة يؤمنون بما جاء به، ولما أتى بالناقة عقرها (قدار) فكان شؤماً على قومه لأنه جلب إليهم الدمار، فكذا (ابن طاهر) جلب لمدينته الخراب والدمار. قال:

خَبِّـــــر بلنـــــسيةَ وكانـــــت جنّـــــةً
أنْ قـــــدْ تَـــــدلتْ في سَـــــواءِ النّـــــارِ
غَـــــدرتْ وفيـــــاً بـــــالعهودِ وقلّمـــــا
عَثـــــرَ الـــــوفيُّ سَـــــعى إلى الغَـــــدّارِ
جـــــاءَ الـــــوزيرُ بهـــــا يكـــــشّفُ ذَيلـــــها
عـــــن سَـــــوأةٍ سَـــــوأى وعـــــارٍ عـــــارِ
نكـــــثَ الـــــيَمينَ وحـــــادَ عـــــنْ سُـــــنَنِ التُّقـــــى
وقَـــــضى علـــــى الإقبـــــالِ والإدبـــــارِ
مـــــا كُنـــــتُمُ إلاّ كأُمـــــةِ صـــــالِحٍ
فَرمـــــاكمُ مـــــنْ طـــــاهرٍ بقُـــــدارِ
هَـــــذا وخـــــصَّكُمُ بأَشـــــامِ طـــــائرٍ
ورَمـــــى ديـــــاركمُ بأســـــوأ جَـــــارِ[1]

1 ابن عمار: ديوانه ٢٨٧ (ق٥٨) جمعه د. صلاح خالص في دراسة أدبية تأريخية، مطبعة الهدى، بغداد ١٩٥٧.

ويختار الهجاء من قصة موسى ـ عليه السلام ـ جوانب تفيده منها: عصا موسى، وهي معجزة الكليم في الكشف عن ضلال السحرة وزيفهم حين تنقلب إلى حية هائلة تلقف حبال السحرة وعصيهم أمام فرعون. وقد تحدثنا في غرض الوصف عن ذلك.

ويستخدم أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي (٥٩٨ هـ) عصا موسى ـ عليه السلام ـ في وصف أحد أصحابه الأكولين، وكانت شراهته لسرط الطعام كالسحب المنهمرة بمطر غزير لا يتوقف، وما إن أحس بمأكول يقدم إليه حتى يسبق فمه بصره، فتحس أنك أمام عصا موسى، وقد انقلبت أفعى تلقف ما يقدم لها من إفك السحرة قال:

وصَـــاحبٍ لـــي كانـــتْ طبائعُـــهُ
كأنهـــا سُـــحُبٌ بالـــسرْطِ مُنهمِـــرهْ[1]
إذا أحـــــسَّ بمـــــأكُولٍ تُقدِّمـــــهُ
يكـــادُ يَـــسبقُ فيـــهِ حلقـــهُ بَـــصرهْ
كـــأنَّ فـــاهُ عَـــصا موســـى إذا انقلبـــتْ
ومـــا تُقدِّمـــهُ إفـــكٌ مِـــنَ الـــسَّحرهْ[2]

وقد يستجير ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٧٧٦ هـ) بأبناء السادة الكرام، الأحياء والأموات منهم على السواء أن ينصروه على بلواه من رسول اختير لإرساله إلى الأندلس في مهمة، فقد ظهر أن ذلك الرسول الذي يدعى بموسى لا يحاكي سميه النبي موسى وعصاه في التأثير

---

1 السرط: بفتحتين وسكن للضرورة الشعرية، وهو ازدراد الطعام وابتلاعه.

2 صفوان بن إدريس المرسي: شعره (ق ٢٣) صنعه وحققه د. أحمد حاجم الربيعي مجلة كلية التربية / المستنصرية ع (١- ٢) للسنة ٢٠٠١.

في فرعون والسحرة والملأ برسالته إليهم. ويطلب منهم أن يُعيّنوا له رسولاً صارم الحد، محكم التدبير وله فهم في فن مداورة الحديث وإلاّ فليريحوا قلبه من التخبط في عذاب كبير. قال:

يـــا بـــني الـــسّادة الكـــرامِ نـــداء
يبتغـــي الجـــبر للمهـــيض الكـــسيرِ
أنـــا بـــالحيِّ مُـــستجيرٌ وبالميـــ
ـــتِ أمـــا في كِليهمـــا مِـــنْ مُجـــيرِ
لـــيسَ مُوســـى هـــذا بِـــصاحب فرعـــو
نَ ولا في عّـــصاهُ مِـــنْ تـــأثيرِ
فانـــصروني وعيّنـــوا لـــي رَســـولاً
صـــارمَ الحـــدِّ مُحكَـــم التـــدبيرِ
أو أريحُـــوا باليـــأسِ قلـــبي فـــإنّي
قـــدْ تخبّطـــتُ في عـــذابٍ كَـــبيرِ[1]

ويمثل ابن الجد، أبو الحسن يوسف بن محمد (القرن الخامس الهجري) ملوك الأندلس بالعجل الذي صنعه السامري من الذهب، وألقى فيه شيئاً من أثر جبريل ـ عليه السلام ـ فخار واتخذه بنو إسرائيل إلهاً. وقد تحدثنا عن ذلك في الوصف.

ويرى هؤلاء الملوك وقد أصابتهم دوائر السوء التي لا تُبقي ولا تذر، فناموا عنها والقدر يسري إليهم تحت جنح الليل البهيم، فهوى بأنجمهم وما يشعرون، وكيف يشعر من اتخذ مجلس أنسه هواه، وفي كفه قدح، ويقوده مهلياه

1 ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ١٩٤ نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي، ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

الناي والوتر إلى الطرب، فصم مسامعه دونهما من كل آية أو سورة قرآنية تأمر بالجهاد ومقاتلة العدو الذي استغل تفرق شمل المسلمين، وانقسام البلاد إلى دول الطوائف، فأخذ بالإغارة على تلك الدويلات يستولي على مدنها وحصونها، بالقوة تارة وبالتهديد تارة أخرى، وتجد أحدهم كالعجل معبوداً في مجلسه وله خوار ولكنه مملوء جبناً وخوفاً مثله مثل العجل الذي عبده بنو إسرائيل لا يملك نفعاً ولا ضراً. فقال ابن الجد:

في كُـــلِّ يَـــومٍ غَريـــبٍ فيـــهِ مُعتـــبرُ
نلقـــــاهُ أَو يَتلقّانـــــا بـــــهِ خَـــــبرُ
أرى الملـــــوكَ أَصـــــابتهم بأَنـــــدلسٍ
دَوائـــرُ الـــسوءِ لا تُبقـــي ولا تَـــذرُ
نـــامُوا وأَســـرى لهُـــم تَحـــتَ الـــدُّجى قَـــدرٌ
هَـــوى بـــأَنجُمهم خَـــسفاً ومـــا شَـــعروا
وكيـــفَ يَـــشعرُ مَـــنْ في كفِّـــهِ قَـــدحٌ
يَحـــدو بـــهِ مُلـــهياهُ النّـــايُ والـــوَترُ
صَـــمّتْ مـــسامعُهُ مِـــنْ غـــيرِ نَغتمـــهِ
ممّـــا تمـــرُّ بـــهِ الآيـــاتُ والـــسُّورُ
تَلقـــاهُ كالعِجـــلِ مَعبـــوداً بمجلـــسهِ
لـــهُ خـــوارٌ ولكـــنْ حَـــشوهُ خـــورُ[1]

وفي جانب آخر من جوانب هذه القصة، يطلب قوم موسى ـ عليه السلام ـ منه وهم في التيه أن يسقيهم فضرب بعصاه حجراً كانوا يحملونه معهم أينما حلّوا،

1 ابن الخطيب: أعمال الإعلام ٢٤٢ ط دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦م.

فتفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء، تشرب كل فئة من عين ماء زلالاً كما في قوله تعالى: ﴿وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلُّ أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1].

وقد يجد الشعراء في الحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانبجس ماء صورة معكوسة للبخيل الذي لا ينبجس عطاء. فابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (٣٢٨ هـ) يتعرض لأحد البخلاء وقد غره منه وميض سناء براعته فمد يده إليها مقتبساً من نورها، ولكنه وجد صاحبها صلداً لو ضربه بعصا موسى لما انبجس ماء كما انبجس حجر موسى، وكأنما صيغ من خصلتين ذميمتين: اللؤم والكذب فكانا له روحاً ونفساً. قال:

يَراعَـــةٌ غرتّـــي مِنهـــا ومـــيضُ ســـناً
حتّـــى مَـــددْتُ إليهـــا الكـــفَّ مُقتبِـــسا
فَـــصادفتْ حَجـــراً لـــو كُنـــتَ تَـــضربُهُ
مِـــن لُؤمـــهِ بِعـــصا مُوســـى لمـــا انبجَـــسا
كأنّمـــا صِـــيغَ مِـــنْ لُـــؤمٍ ومِـــنْ كـــذبٍ
فكـــانَ ذاكَ لـــهُ روحـــاً وذا نَفـــسا[2]

وقال أيضاً:

عَـــذّيري مـــن خُلـــفٍ تَخلّـــفَ مـــنهُمُ
غَبـــاءٌ ولُـــؤمٌ فاضِـــحٌ وجَفـــاءُ
حِجـــارةُ بُخـــلٍ مـــا تَجـــودُ ورُبّمـــا
تَفجَّـــرَ مـــنْ صُـــمِّ الحِجـــارةِ مـــاءُ

---

1 سورة البقرة: الآية ٦٠.

2 ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٣١/١.

ولـــوْ أنَّ مُوســـى جـــاءَ يَـــضربُ بالعَـــصا

لمـــا انبجَـــستْ مِـــنْ ضَـــربهِ الـــبُخَلاءُ

بقـــاءُ لئـــامِ النّـــاسِ مَـــوتٌ علـــيهمُ

كمـــا أنَّ مـــوتَ الأكـــرمينَ بقـــاءُ

عزيـــزٌ علـــيهم أنْ تجـــود أكفُّهـــم

علـــيهم مِـــنْ اللهِ العَزيـــزِ عَفـــاءُ[1]

وكذلك هجاء السمسير، أبي القاسم خلف بن فريج الألبيري لأبي الحسن علي العامري الذي حاد قليلاً عن بخله، وتلك ندرة منه، أو معجزة مثل معجزة نار الخليل التي صارت برداً وسلاما، وجاد - وهو مقبول منه - بدرهم ولكنه يعدل عشرة آلاف درهم عنده، وتعجب الناس وتساءلوا كيف أفلتت منه ذرة وهو صخرة، وهل رأيتم أحداً بعد موسى ضرب بعصاه ففجر صخرة. قال:

حـــادَ عـــن بُخـــلٍ علـــيٌّ

تلـــكَ في العـــالمِ نُـــدرهْ

فهـــي كالنّـــارِ اعترتْهـــا

عَـــصرَ إبـــراهيمَ قَـــرّهْ

جـــادَ نَـــزراً فقبلنـــا

دِرهـــمُ الـــساقطِ بَـــدرهْ[2]

عَجـــبَ النّـــاسُ وقـــالوا

كيـــفَ نِيلَـــت مِنـــهُ ذَرَّهْ؟

---

1 ابن عبد ربه: ديوانه ١٥- ١٦.

2 البدرة: عشرة آلاف درهم.

هَـــــلْ رأيـــــتُمْ بَعـــــدَ مُوســـــى

أحـــــــداً فَجَّـــــــرَ صَـــــــخرهْ؟[1]

ويلتقط الهجاء من قصة النبي سليمان ـ عليه السلام ـ فضل الله عليه بتسخير الجن والشياطين يعملون له ما يشاء، لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، فمنهم بناؤون يعملون له أبنية حسنة، وصوراً تزيّن الجدران. وحياضاً للماء، وقدوراً ثوابت تملأ الطعام، ومنهم غواصون يعملون لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة، وآخرون مقيدون بالسلاسل عقاباً لعصيانهم كما في قوله تعالى: "ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السّعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور"[2].

وقوله تعالى: ﴿والشياطين كلّ بنّاء وغواصٍ وآخرين مقرّنين في الأصفادُ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[3].

وينقلنا ابن صارة الشنتريني، أبو محمد عبد الله (٥١٧ هـ) إلى أحد الأبنية التي بناها لسليمان ـ عليه السلام ـ وهو فم أحد المهجوين، فيعمد إلى وصفه بسخرية لاذعة، فالثنايا التي تظهر منه لن يثني عليها، لأن كل ما يبدو منها سن ضخم كأنه المسن الذي تصقل به المعادن، وبقية الأسنان صفاح وأعمدة بناها جن سليمان كما بنوا تدمر بالصفاح والعمد وألفاظه ذات أنغام سحرية يهديها إلى السامع كالنفاث في العقد، قال:

---

1 العماد الأصفهاني: خريدة القصر ق ٤/٢/١٦.

2 سورة سبأ: الآيتان ١٢- ١٣.

3 سور ص: الآيات ٣٧- ٣٩.

أمّـــا الثّنايـــا فـــإني لـــستُ مُنثنيـــاً

عـــن الثّنـــاءِ عليهـــا آخـــرَ الأبَـــدِ

يَبـــدو لِطرفـــكَ مِنهـــا حـــينَ تُبـــصرها

سِـــنٌّ كمثـــلِ مِـــسنِّ الـــصَّقيلِ الفَـــردِ

كـــأنَّ جِـــنَّ سُـــليمانٍ بَنَـــوا فَمَـــهُ

بُنيـــانَ تَـــدمُرَ بالـــصُفّاحِ والعَمَـــدِ

يَهـــدي إلى الـــسَّمعِ مـــن ألفاظِـــهِ نَغَمـــاً

كأنّهـــا نَفثـــاتُ الـــسِّحرِ في العُقَـــدِ[1]

ولما لم يصرح الشاعر بذكر المهجو فإن ابن بسام أجاز إثبات هذا في كتابه، لأنه كما يذكر في خاتمة هذه الأبيات قد نزّهه عن الهجاء، ولم يجعله ميداناً للسفهاء.

ويتعرض ابن الزقاق البلنسي أبو الحسن علي بن عطية إلى هجاء ثقيل يحسبه الجاهل أديباً كما يحسب الظمآن السراب ماء، فلو وضع في عرش بلقيس قدمه لأعيا حتى على الجن أن تنقله من سبأ إلى سليمان. قال:

ورُبّمـــا خالَـــهُ ذُو الجَهـــلِ ذا أدبٍ

لا يحـــسبُ الآلَ مـــاءً غـــيرُ ذي ظَمـــأِ

لـــو أنّ في عَـــرشِ بلقـــيسٍ لـــهُ قـــدماً

أعيـــا علـــى الجِـــنِّ أنَّ تُزجيـــهِ مـــنْ ســـبأِ[2]

---

1 ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ٢/٢/٨٤٦.

2 ابن الزقاق البلنسي: ديوانه ٧٢ (ق٤). تزجيه: تسوقه.

أما قصة أصحاب الفيل فإن الهجاء يركز فيها على المصير الذي آل إليه جيش أبرهة الحبشي الذي يتقدمه الفيل لهدم الكعبة، فأهلكهم الله وحفظ بيته الحرام. قال تعالى: "ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول.[1]

وينقل إلينا اسماعيل بن بدر (٣٥١ هـ) صورة العذاب الذي عاناه وأصحابه من نفحات نتنة تأتيهم من أحد المهجوين، ولو أنه كان على بعد ميل منهم، ذلك العذاب الذي لم يعذّب به أصحاب الفيل حين أرسل الله عليهم جماعات من الطير تحمل في مناقيرها حجراً من سجيل فترميهم بها، فتسقط على رؤوسهم، وتتركهم صرعى كزرع حصيد. قال:

تأتيكَ منْ زهمتِهِ نَفحَةٌ
لو أنَّهُ مَرَّ على مِيلِ[2]
ما عذّبَ اللهّ كتعذيبِهِ
بهِ لنا أهلَ الأبابيلِ[3]

٥- الرثاء:

وهو ضرب من المديح إلاّ أنه يقال في الميت، أو هو كما قال ابن رشيق: "وليس بين الرثاء والمدح فرق إلاّ أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت"[4].

---

1 سورة الفيل: الآيات ١- ٥.

2 الزهمة: الرائحة النتنة.

3 ابن الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ٢٧٧.

4 ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٣٩/٢ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة ١٩٣٤ م.

ويستوحي الرثاء من القصص القرآني معالم الأسى في حزن يعقوب على يوسف، ومعالم العظة والاعتبار في ذهاب الأقوام مثل: عاد وثمود ومدين. وفي قصة عاد قوم هود - عليه السلام - من العظات والعبر ما يناسب مثل هذا الغرض، فقد كان هؤلاء القوم ينتظرون خبر العارض الممطر بعد مدة من الجدب، وطلبوا السقيا، فساق الله إليهم سحابة سوداء فاستبشروا بها، وظنوها سقيا رحمة فإذا هي سقيا عذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فلمّا رأوه عارضاً مستقبلَ أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾[1].

ويضع ابن الجنان الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن محمد (٦٤٨ هـ) الناعي مقابل العارض الممطر، ذلك الناعي الذي ينقل الخبر المشؤوم، ويتابع الناعي في كل حركاته وسكناته، بل يتعمق إلى مشاعره، وكل ما يرجوه منه أن لا يتفوه بالخبر، وإذا تفوه به لعله يكون كاذباً أو متقولاً فيه، أو حدث خطأ في تواتر نقله، فما أحسن القول أن يكون كذبا، وما أقبحه أن يكون صدقاً، وهو مقياس خاطئ، إلا في هذا الموضع. وتأثير نقل الخبر يظهر جلياً في ارتجاف فم الناعي وارتجاف قلب السامع مخافة أن تكون تلك الظنون صادقة، وكان السامعون مثل قوم عاد ينتظرون العارض الممطر، فإذا بهم يرهصون بمصيبة تزعزع أركان الصابر منهم، ويتحقق ما أنذرهم به الناعي وتكون للدهر عليهم صولة فهل له بعد ذلك صولة أخرى؟ قال:

ألا أيُّهـــا النّـــاعي لـــكَ الثُّكـــل لاتفُـــه

بهـــا إنّهـــا أمُّ الـــدَّواهي الـــدَّواهِكِ[2]

---

1 سورة الأحقاف ٢٤- ٢٥.

2 الدواهك: جمه داهك التي تطحن وتكسر.

لعلّـــكَ في نَعـــي العُـــلا مُتكـــذِّبٌ

فكـــمْ ماحِـــلٍ مـــن قَبـــلُ فيـــهِ وماحِـــكِ[1]

فكـــذبهُمُ يـــا ليـــتَ أنّـــكَ مثلـــهُم

تَـــواترَ أخبـــارٍ وصـــدق مآلـــكِ[2]

فيـــا حُـــسنَ ذاكَ القـــولِ إذْ بـــانَ كذبُـــهُ

ويـــا قُبحَـــهُ والـــصدقُ بـــادي المـــسالِكِ

لقـــدْ أرجفـــوا فيـــهِ، وقلـــبي راجـــفٌ

مَخافـــةَ تَـــصديقِ الظنُـــونِ الأوافِـــكِ

كـــأنَّهمُ مُـــستمطِرونَ لِعـــارضٍ

كعـــارضِ عـــادٍ للتَّجلـــدِ عـــارِكِ

بَلـــى إنّهـــم قَـــدْ ارهـــصوا لزريّـــةٍ

تُضعـــضعُ ركـــنَ الـــصّابرِ المُتمالـــكِ

فَقـــد كـــانَ مـــا قَـــدْ أُنـــذِروا بوقُوعـــهِ

فهـــلْ بَعـــدهُ للـــدهرِ صُـــولةُ فاتِـــكِ[3]

وفي قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ما يدعو إلى التأسي بفقد الأبناء والحزن عليهم بحزن يعقوب على يوسف فابيضّت عيناه من كثرة البكاء، وهو كظيم لحزنه لا يظهره لغيره، وإنما كان يبث حزنه وشكواه إلى الله الذي يجعل له فرجاً ومخرجاً. ولما تنبّه بنوه إلى ما يقاسيه أبوهم من ألم الوجد

---

1 الماحك: الرجل إذا لج.

2 المآلك: جمع مالكة وهي الرسالة ومنه الملائكة.

3 ابن الجنان الأنصاري: ديوانه ١٣١ – ١٣٢ (ق ٣٠).

والفراق على يوسف طلبوا منه تناسي ذكره، والترفّق بحاله، والحرص على صحته. قال تعالى:

﴿وتولّى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيمٌ قالوا تالله تفتأُ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكينُ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾[1].

ويعقد إسماعيل بن بدر (٣٥١ هـ) مفاضلة بينه وبين يعقوب ـ عليه السلام ـ في حزن كل منهما على ولده، ويرى حزنه على ولده أحمد أشد من حزن يعقوب على يوسف لأنه دفن ابنه بيديه، ويوسف لم يُقبر ولم يُلحد، وكان يرجوه حياً وهو أعلم به، فهل يرجو من غمّض عينيه بيديه. قال:

مـــا حُـــزنُ يَعقـــوبَ علـــى يُوســـفٍ
أَشـــدُّ مِـــنْ حُزنـــي علـــى أَحمـــدِ
أحمـــــدُ ملحُـــــودٌ، فهـــــل نـــــستوي
وذاكَ لمْ يُقـــــــــــبر ولم يُلحَـــــــــــدِ
وكـــــان يَرجـــــوهُ، وهَـــــل أرتجـــــي
هـــــذا وقَـــــدْ غمـــــضتُهُ باليَـــــدِ؟[2]

ويتحول الحزن على يوسف بن تاشفين أمير المرابطين (٤٥٣- ٥٠٠هـ) إلى حزن عام، فهذا الأمير الذي فاق الناس في عمل التقوى، فكان في فقده مثل يوسف، وفي حزن الناس عليه مثل يعقوب، فجوزي بذلك خيراً عن رعيته التي لم ترض إلاّ ما يرضى الله تعالى. أما مساعيه الكرام في سبيل الله، فإن له في

---

1 سورة يوسف: الآيات: ٨٤- ٨٦.

2 ابن الآبار: الحلة السوداء ١/٢٥٥.

كل عام غزوة في الروم، ويصل الجهاد بالجهاد، فيوقف حتم القضاء بكل ما يقضيه. فقال أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني من قصيدة أنشدها على قبره:

مَلِـــكَ المُلـــوكِ ومـــا تَركـــتَ لِعامـــلٍ
عَمـــلاً مـــنَ التّقـــوى يُـــشاركُ فيـــهِ
يـــا يُوسُـــفُ مـــا أنـــتَ إلاّ يُوسُـــفٌ
والكـــلُّ يَعقـــوبٌ بِمـــا تَطويـــهِ
اسمـــع أَمـــيرَ المـــؤمنينِ وناصـــرَ الـــ
ديـــنِ الـــذي بِنفُوسِـــنا نَفديـــهِ
جُوزيـــتَ خَـــيراً عـــن رعيتـــكَ التّـــي
لمْ تـــرضَ فيهـــا غَـــيرَ مـــا يرضـــيهِ
أمـــا مـــساعيكَ الكـــرام فإنهـــا
خَرجـــتْ عـــن التكييـــفِ والتـــشبيهِ
في كُـــلِّ عـــامٍ غَـــزوةٌ مـــبرُوءةٌ
تُـــردي عَديـــدَ الـــرُّومِ أو تُفديـــهِ
تـــصلُ الجِهـــادَ إلى الجِهـــادِ مُوقفـــاً
حَـــتْمَ القَـــضاءِ بِكـــلِّ مـــا تَقـــضيهِ[1]

وينطلق ابن الحداد، أبو عبد الله محمد بن القيسي (٤٨٠ هـ) في الحديث عن الموت من رؤية فلسفية، فالموت عنده سر لا أحد يعرفه، ولا ذهن ثاقب يتوصل إليه، ولكنه في كل شيء محذر منه، مثلما كان شعيب ـ عليه

1 ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ٤/٧٤ تحقيق د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧.

السلام ـ يحذر قومه منه. قال تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنّي أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾[1]. ويفسر لنا الوجود: فالحياة سفر والموت مستقر وإن كرهنا الحلول فيه، فإن الموت لا بد أن يتلو الحياة مثلما يتلو النهار ما تبقى من الليل.

قال:

إنَّ المنيـــــةَ لـــــيسَ يُـــــدركُ كُهنهُـــــا
فَنوافـــــذُ الأفهـــــامِ قـــــدْ وقَفـــــتْ هُنـــــا
في كُـــــلِّ شـــــيءٍ للأنـــــامِ مُحـــــذّرٌ
مـــــا كـــــانَ حـــــذّرهُ شُـــــعيبٌ مَـــــدْينا
وحَياتُنـــــا سَـــــفرٌ وموطِنُنـــــا الـــــرَّدى
لكـــــنْ كَرهنـــــا أنْ نَحُـــــلَّ المَوطِنـــــا
لا بُـــــدَّ أن تَتلـــــو الحَيـــــاةَ مَنيّـــــةٌ
مَـــــنْ شَـــــكّ أنَّ اليـــــومَ يُزجـــــي الموهِنـــــا[2]

وهناك قصائد أو مراث في دول الأندلس وممالكه الزائلة تشير إلى الأقوام من عهد آدم ـ عليه السلام ـ حتى نبينا محمد ـ (صلى الله عليه وسلم)ـ ولم يبق منهم باق، وكان يقصد منها العظة والاعتبار. ومن القصائد التي احتوت على مثل هذه الإشارات العابرة التي لا ترقى إلى مستوى القصص: مرثية ابن عبدون في بني الافطس، ومرثية ابن صابر المنجنيقي في عصر

---

1 سورة هود: الآية ٨٤.

2 العماد الأصفهاني: خريدة القصر ق ٢٠٦/٢/٤ يزجي: يبعث. الوهن: ما بعد منتصف الليل

الموحدين، ومرثية أبي البقاء الرندي في الأندلس.[1]

(٦) الحنين:

وهو تعبير عن رغبة ذاتية صادقة في رؤية الموطن الذي نشأ فيه الشاعر، وما فيه من أهل وأصحاب وأحباب مشوبة بخلجات وجدانية، وأحاسيس مرهفة تثير الأسى والندم لفراقه والحسرة على نعيمه.

ولعل أقرب القصص القرآنية التي استفاد منها الحنين هي قصة آدم ـ عليه السلام ـ ومفارقته الجنّة التي أسكنه الله فيها بعد خلقه وحنينه إليها. كما في قوله تعالى: ﴿فقلنا يا آدم إنّ هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتيكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾[2].

ونجد في قصة ابن زيدون، أبي الوليد أحمد بن عبد الله (ـ٤٦٣هـ) وخروجه من قرطبة صورة تماثل آدم ـ عليه السلام ـ وخروجه من الجنة. ويتذكر ابن زيدون حياته في قرطبة، ويتحسّر على انقضاء أيام النعيم والوصال مع حبيبته ولادة بنت المستكفي، فيندب جنة الخلد التي أخرج منها كرهاً، ولكنه ظل يحن إلى تلك السدرة وإلى ذلك الكوثر العذب اللذين

---

1 ينظر: ابن خاقان: قلائد العقيان ٤٢- ٤٣ قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي، ط المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٦. وابن دحية الكلبي: المطرب ٢٧ والمراكشي: المعجب ٧٦- ٧٨. والمقري: نفح الطيب ٥/١٥٣- ١٥٤. والمقري: أزهار الرياض ١/٤٧- ٤٨.

2 سورة طه: الآيات ١١٧- ١٢٣.

أبدل بهما طعام النار وشرابها ، الزقوم والغسلين. قال:

يـــا رَوضـــةً طالمـــا أجنـــتْ لواحِظنـــا
ورداً جـــلاهُ الـــصِّبا غَـــضّاً ونِـــسرينا[1]

ويـــا حَيـــاةً تمَلّينـــا بزهرتهـــا
مُنـــىً ضُـــروباً ولـــذّاتٍ أفانِينـــا[2]

ويـــا نَعيمـــاً خَطَرنـــا مـــنْ غَـــضارتهِ
في وشـــيِ نُعمـــى سَـــحَبنا ذَيلَـــهُ حِينـــا[3]

يـــا جَنـــةَ الخُلـــدِ أُبـــدِ لنـــا بـــسدرتها
والكـــوثرِ العَـــذبْ زقومـــاً وغِـــسلينا[4]

إن كـــانَ قـــدْ عَـــزَّ في الـــدُّنيا اللّقـــاء ففـــي
مواقِـــفِ الحَـــشرِ نلقـــاكُم وَيكفينـــا[5]

وتتضح قصة آدم ـ عليه السلام ـ وحنينه إلى الجنة عند النحلي البطليوسي (عصر الطوائف). وها نحن نسوق حكايته مع المعتصم محمد بن معن بن صادح (٤٤٣- ٤٨٤ هـ) ملك المرية: "ومن حكايات أهل الأندلس في العفو أن المعتصم بن صادح كان قد أحسن للنحلي البطليوسي، ثم أن النحلي سار إلى أشبيلية، فمدح المعتضد بن عباد بشعر قال فيه:

---

1 النسرين: نوع من الزهر الأبيض طيب الرائحة.

2 تمليناً: تمتعنا. ضروبا: صنوفا.

3 الغضارة: السعة والخصب وخفض العيش. الوشي: ثوب من الحرير منقوش.

4 السدرة: شجرة النبق، والإشارة هنا إلى (سدرة المنتهى). الكوثر: نهر في الجنة. الزقوم: شجرة في جهنم. غسلين: شراب أهل النار.

5 ابن زيدون: ديوانه ١٤٥- ١٤٦.

أبـــــادَ ابـــــنُ عبّـــــادٍ البَربَـــــرا

وأفنـــــى ابـــــنُ معـــــنٍ دَجـــــاجَ القُـــــرى

ونسي ما قاله، حتى حل بالمرية، فأحضره ابن صادح لمنادمته، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها غير دجاج، فقال النحلي: يا مولاي، ما عندكم في المرية غير الدجاج؟ فقال: إنما أدرت أن أكذبك في قولك:

وأفنـــــى ابـــــنُ معـــــنٍ دَجـــــاجَ القُـــــرى

فطار سكر النحلي، وجعل يعتذر، فقال له: خفّض عليك، إنما ينفق مثلك بمثل هذا. وإنما العتب على من سمعه فاحتمله منك في حق من هو في نصابه، ثم أحسن إليه، وخاف النحلي، ففرّ من المرية، ثم ندم فكتب إلى المعتصم:

رِضـــــى ابـــــنِ صُـــــمادحَ فارقتُـــــهُ

فلـــــمْ يُرضِـــــني بعـــــدَهُ العـــــالَمُ

وكانـــــــتْ مَريّتُـــــــهُ جنّـــــــةً

فجئْـــــتُ بمـــــا جـــــاءهُ آدمُ[1]

واستخدم ابن اللبانة الداني، أبو بكر محمد بن عيسى (٥٠٧هـ) أبيات النحلي وغيّر ما يناسب حالته من اسم مدينة المرية إلى بطليوس واسم ملكها ابن صمادح إلى المتوكل في حادثة مماثلة وقعت له مع المتوكل عمر بن الأفطس (٤٦٤- ٤٤٨هـ) ملك بطليوس، وقد قال فيه بعد ما رحل عنه:

رضـــــى المُتوكـــــلِ فارقتُـــــهُ

فلـــــمْ يُرضِـــــني بَعـــــدَهُ العـــــالَمَ

1 المقري: نفح الطيب ٩/٤.

وكانـــــت بَطلَيـــــوسُ لـــــي جنّـــــةً

فجئـــــتُ بِمـــــا جـــــاءهُ آدمُ[1]

ويخاطب ابن باجة، أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (٥٢٣ هـ) موطنه أو جنته التي فارقها دونما رغبة في ذلك، وإنما حتّمت الظروف الابتعاد دون أن يصاب في المال والدم، ولكنه يأتسي بآدم قبله حين فارق الفردوس قائلاً:

أمَـــوطِنيَ الـــذي أُزعجـــتُ عنـــهُ

ولمْ أُرزأ بـــــهِ مـــــالاً ولا دَمْ

لـــئنْ أزعجـــتُ عنـــكَ بِغـــيرِ قَـــصدٍ

فقبلـــــي فـــــارقَ الفـــــردوسَ آدمْ[2]

ويعترف ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٧٧٦هـ) بما اقتضته ذنوبه في فراق جنته ودار قراره غرناطة، فتحول عنها إلى المغرب أثر سعاية به، ويأسف على ما ضاع من حظه بها، فها هو الآن لا تنقضي أحزانه ولا ينقطع بكاؤه عليها، فإن أشرقت الشمس شرّق بعبرته، وإن غربت فاضت مآقيه غروباً من الدمع، حتى تعلمت الحمامة في الضحى شجوه، واستعارت شمس الأصيل شحوبه، ولكنه مع هذا لم ييأس من رحمة الله في العودة إلى جنّته ما دامت شهادته بالله الواحد الصمد تُوجب ذلك. قال:

يـــا جنّـــةً فارقـــتُ مـــن غُرَفاتهـــا

دارَ القـــرارِ بمـــا اقتـــضته ذُنُـــوبي

أسـفي علـى مـا ضـاعَ مِـنْ حظّـي بِهـا

لا تنقـــــضي تَرحاتُـــــهُ ونَحـــــيبي

---

1 ابن اللبانة الداني: شعره ٩١ (ق٧١).

2 المقري: نفح الطيب ٥٠٩/٦.

إنْ أشـــرَقتْ شَـــمسٌ شَـــرقت بعبرتـــي

وتفـــيض في وقـــتِ الغُـــروب غُروبـــي

حتّـــى لَقـــد علّمـــتُ ســـاجِعةَ الـــضّحى

شَـــجوي وجانحـــةَ الأصـــيلِ شُـــحوبي

وشـــهادةُ الإخـــلاصِ تُوجـــبُ رَجعـــتي

لِنعيمهـــا مِـــنْ غَـــيرِ مـــسٍّ لغُـــوبِ[1]

ويتطرّق الحنين إلى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويختار منها نار الخليل لأنها توافق نار الشوق والحنين وإن كانت الأخيرة محرقة، ويأمل ابن عطية المحاربي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (٥٤٢ هـ) من نار الشوق التي خلفتها ذكريات أيام شبابه أن تكون برداً وسلاماً مثل نار الخليل، ذلك الشباب الذي ظل يمرح في ريعانه، ولم يخلّف وراءه سوى آثار تدل عليه. قال:

ســـقياً لعَهـــدِ شَـــبابٍ ظلْـــتُ أمـــرحُ في

رَيعانـــهِ وليـــالي العـــيشِ أســـحارُ

أيـــامَ روضُ الـــصِّبا لم تَـــذوِ أغـــصُنه

ورَونـــقُ العُمـــرِ غـــضٌّ والهـــوى جـــارُ

والـــنّفسُ تَـــركضُ في تَـــضميرِ شـــرتها

طرفـــاً لـــهُ في رهـــانِ اللّهـــوِ إحـــصارُ

عهـــداً كريمـــاً لبـــسنا منـــهُ أرديـــةً

كانـــتْ عُيونـــاً ومَحّـــتْ فَهـــي آثـــارُ

---

1 المصدر نفسه ٤٥٧/٦.

مـــضَى وأبقـــى بقلـــبي منـــهُ نـــارَ أســـىً

كُـــوني سَـــلاماً وَبَـــرداً فيـــهِ يـــا نـــارُ[1]

ويتبين أثر إبراهيم ـ عليه السلام ـ في وجود مكة المكرمة وبناء البيت الحرام جلياً، فمكة كانت وادياً غير ذي زرع، وكان البيت فيه مقدراً ولكنه غير شاخص، فوضع الخليل زوجه وابنه اسماعيل عليهما السلام في حمى البيت المحرم. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[2]. ولما أمره الله تعالى ببناء البيت كان إسماعيل يأتيه بالحجارة، ويعجن له الطين، وإبراهيم يرفع قواعد البناء، حتى إذا ارتفع البناء، جاءه بحجر ليرتفع عليه، فترك فيه أثر قدميه الشريفين، وأصبح موضع هذا الحجر مقام إبراهيم مصلى للناس. قال تعالى: ﴿وإذا جعلنا البيت مثابة للنّاس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطّائفين والعاكفين والرّكع السجّود وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثّمرات من آمن منهم باللّه واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثمّ اضطرّه إلى عذاب النّار وبئس المصيرُ وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السّميع العليمُ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيمُ ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[3].

---

1 ابن خاقان: قلائد العقيان ٢٤٠.

2 سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

3 سورة البقرة: الآيات ١٢٥- ١٢٩.

ويتشوق ابن السيد البطليوسي، أبو محمد بن عبد الله بن محمد (٥٢١ هـ) إلى مكة المكرمة وبيتها الحرام الذي قهر الملوك العظام وأذلّهم، وارتفعت قواعدها المشيدة بأيد برّة بالتقوى، وساوت في الفضل مقام إبراهيم الذي تُنال به القربي، وتُمحى فيه الآثام والذنوب، وفيها مبعث النبي محمد -(صلى الله عليه وسلم) - الذي ساد الأنام، وحوى فضل الأولين والآخرين، وصار خاتم النبيين، وفيها الحجر الأسود الذي يلثمه الحجيج طلباً للتبرك، وفيها الصفا الذي وقف عليه إبراهيم يدعو الناس إلى الحج، فلبّى الناس مشاة وراكبين من كل واد عميق. قال:

أمكّـــةُ تُفـــديكِ النُّفـــوسُ الكـــرائِمُ
ولا بَرِحـــت تنهـــلُّ فيـــكِ الغَمـــائمُ
فإنّـــكِ بيـــتُ اللهِ والحَـــرمِ الّـــذي
لعِزّتـــهِ ذُلّ المُلـــوكُ الأعـــاظِمُ
وقـــد رُفعـــتْ منـــكِ القواعـــدُ بـــالتُّقى
وشـــادتْكِ أيـــدٍ بـــرّةٌ ومَعاصِـــمُ
وســـاويتِ في الفَـــضلِ المَقـــامَ كلاهُمـــا
تُنـــالُ بـــهِ الزُّلفـــى وتُمحـــى المـــآثِمُ
ومـــنْ أيـــنَ تَعـــدوكِ الفَـــضائل كلّهـــا
وفيـــكِ مَقامـــاتِ الهُـــدى، والمعـــالِمُ
ومَبعـــثُ مـــنْ ســـادَ الـــورى وحـــوى العُـــلا
بمولـــدهِ عبـــدُ الإلـــهِ وهاشِـــمُ

نَـــبيٌّ حـــوى فَـــضلَ النبـــيين واغتَـــدى

لهُـــــم أوّلاً في فَـــــضلهِ وهـــــو خـــــاتمُ

وفيـــــكِ يمـــــينُ اللهِ يلثمُهـــــا الـــــوَرى

كمـــا يلـــثمُ اليُمنـــى مـــن المَلْـــكِ لاثِـــمُ

وفيـــــكِ لإبـــــراهيمَ إذ وَطِـــــئَ الـــــصَّفا

ضُـــــحا قَـــــدَمٍ بُرهانُهـــــا مُتقـــــادمُ

دَعـــا دَعـــوةً فـــوقَ الـــصَّفا فَأجابـــهُ

قطـــوفٌ مِـــنَ الفَـــجِّ العَميـــقِ وراسِـــمُ[1]

وفي قصة يونس ـ عليه السلام ـ عبرة لمن لا يلوذ بالصبر على المكاره، ويسرع إلى اليأس من رحمة الله كما فعل يونس إزاء إيمان قومه بالله. قال تعالى: "وذا النّون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظّلمات أن لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين"[2].

ويتشوق ابن السمّاك (عصر الموحدين) إلى أرض أحبابه، وكان يتمنى أن يراها، ولكنه لا يقدر على ذلك، وما كل ما يرغب المرء يناله، فيتحول الحنين عنده إلى هم قاتل ويأس مر، مثله مثل يونس في استبطائه قومه من الإيمان، فيئس منهم، وهجرهم ساخطاً. فالتقمه الحوت ولولا أنه كان من المسبحين لله في الرخاء والشدة لما نجّاه الله. وبهذا قضى الرحمن على كل ساخط أو مغاضب أن يموت على كره منه ويحيا على كره. قال:

---

1 د. صاحب أبو جناح: ابن السيد البطليوسي: حياته، منهجه في النحو، شعره ١٠٩- ١١٠ مجلة المورد م ٦ع (١) لسنة ١٩٧٧.

2 سورة الأنبياء: الآية ٨٧- ٨٨ (١٧٨) المقري: نفح الطيب ٣/٣١٥.

تَحـــــنُّ رِكـــــابي نَحـــــوَ أرضٍ ومالُهـــــا

ومـــــاليَ مِـــــنْ ذاكَ الحَـــــنينِ سِـــــوى الهـــــمِّ

وكـــــمْ راغـــــبٍ في مَوضـــــعٍ لا ينالُـــــهُ

وأمـــــسيتُ منـــــهُ مثـــــل يُـــــونسَ في الـــــيمِّ

بهـــــذا قَـــــضى الـــــرّحمنُ في كـــــلِّ ســـــاخِطٍ

يَمـــــوتُ علـــــى كـــــرهٍ ويَحيـــــا علـــــى رغـــــمِ

(٧) الشكوى:

وهـي تعـبير عـن تـأثير عـاطفي يعكـسه الـشاعر بألفـاظ رقيقـة مـشحونة بخلجات وجدانية، وانفعالات ذاتية، وتتنوع تبعاً لتنوع هذا المؤثر، فقد يشكو الـدهر وتقلباتـه، ويتـبرم بـالفقر والعـوز ويندب الـشباب، ويأسـف علـى غـدر الإخوان وموت الوفاء.

وقـد وقـف الـشعراء مـن الـدهر موقـف العـداء، وكـانـت المعركـة بينهمـا دائمة أزلية، ووصف بالثقيل لطول أيامه الـتي تحكـي عمـر نـوح عليـه الـسلام. كمـا في قولـه تعـالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾[1].

ويندفع الجزار السرقسطي، يحيى بن محمد (القرن الخامس الهجري) في طلب الجود من الزمن البخيل، ولكن الليالي إلى تقصير باع همته، ويرى خطوات الرمح تتقاصر عما يأمله فكيف بخطوات المديح، أو أن خطوات القوة لا تنفع فما بال الأدب، فأصبح زماناً ثقيلاً أقصر أيامه أطول من أيام نوح ـ عليه السلام ـ فيشيب لأهواله الولدان قبل المشيب، ويحسد حيّه الميت فيه. قال:

---

1 سورة العنكبوت: الآية ١٤.

أرومُ الجُـــودَ مِـــنْ زَمـــنٍ شَـــحيح
وصَـــعبُ الـــرَوْمِ توقيـــف الجَمُـــوح
وأطمَـــحُ للمعـــالي واللَّيـــالي
تُقـــصِّرُ بـــاعَ هِمَّـــتيَ الطَّمـــوح
وقَـــد قَـــصُرتْ خُطـــا الخَطّـــيِّ عمّـــا
أُؤمّلـــهُ فكيـــفَ خُطـــا المَـــديح
زَمـــانٌ أَقـــصرُ الأيّـــامِ فيـــهِ
كـــأطولِ مـــا حكـــوا عَـــنْ عُمـــرِ نُـــوح
يَـــشيبُ لِهولـــهِ الولـــدانُ ذُعـــراً
ويَحـــسِدُ حيُّـــهُ مَـــنْ في الـــضِّريح[1]

وتقتبس الشكوى صوراً من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وغايتها العبرة والعظة، ومن هذه الصور، صورة قوم موسى وهم تحت سلطة فرعون، فقد كان يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وكل ذلك احترازاً من أن يولد منهم من يقضي عليه وعلى ملكه، ولكن الله شاء أن يولد موسى، فأوحى إلى أمه أن تضعه في التابوت وتلقيه في اليم ليعود إليها ناجياً من القتل كما في قوله تعالى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.[2]

ويلتقط ابن زيدون (٤٦٣ هـ) هذه الصورة أثناء زيارة أمه إياه في سجنه

---

1 الجزار السرقسطي: ديوانه ١٧٥ (ق٤٥) تحقيق ودراسة د. منجد مصطفى عبد اللطيف، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٨.

2 سورة القصص: الآية ٧.

بقرطبة، فبكت عليه بوله، فنظم هذه القصيدة لابن جهور يدفع عن نفسه التهمة، ويستعطفه في حرقه، ولكنه بقي متجلداً من خلال مناجاته لأمه داعياً إياها إلى التصبر على حاله، والتأسي بما أصاب غيرها من الثكل، وفي أم موسى عبرة حين رمت بابنها في التابوت إلى اليم، وهو لم يفقد الصبر بعد، ولم ييأس من رحمة الله، عالم الغيب، وليس غيره من حكم عادل عند جور الدهر. فقال:

أمقتُولـــــةَ الأجفـــــانِ مالَـــــكِ والهـــــاَ

أَلم تُـــرِك الأيـــامُ نَجمـــاً هَـــوى قَبلـــي؟[1]

أقلّـــــي بُكـــــاءً لـــــستِ أوّلَ حُـــــرّةٍ

طَـوتْ بالأسـى كَـشحاً علـى مَـضَضِ الثّكـلِ[2]

وفي أُم موســـــى عِـــــبرةٌ إذ رمـــــتْ بـــــهِ

إلى الـــــيمِّ في التّـــــابوتِ فـــــاعتَبري واســـــلي

ولله فينـــــا علـــــمُ غَيـــــبٍ وحَـــــسبُنا

بـــهِ عنـــدَ جَـــورِ الـــدَّهرِ مـــنْ حكَـــمٍ عَـــدْلِ[3]

ويلتقط كذلك صورة أخرى من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهي صورة السامري أحد زعماء بني إسرائيل وقد أضلّ قومه لما ذهب موسى لمناجاة ربه، فدعاهم إلى عبادة العجل، فعاقبه الله بالانفراد عن الناس فلا يمس أحداً إلاّ أدركتهما الحمى معاً، وكان يتحاشى الناس وينادي إذا رآهم (لا مساس) وقد تحدثنا عن ذلك في الوصف. فقال ابن زيدون من رسالة بعثها إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر ومعها هذه النفثة الشاكية من سجنه:

---

1 مقتولة الأجفان: واهية الجفون لكثرة ما ذرفت من الدموع.

2 الكشح الخاصرة: وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه. المضض: الألم. الثكل: فقد الولد.

3 ابن زيدون: ديوانه ٢٦٤.

يـــــا أبـــــا حَفـــــصٍ وماسَـــــا
واكَ في فهـــــــــمٍ إيـــــــــاسُ[1]
مِـــــن سَـــــنا رأيـــــكَ لـــــي في
غَـــــسقِ الخَطـــــبِ اقتبـــــاسُ
أنـــــا حـــــيرانُ وللأمْـــــ
ـرِ وضُـــــوحٌ والتبـــــاسُ
مـــــا تـــــرى في معـــــشرٍ حـــــا
لُـــــوا عـــــنِ العهـــــدِ وخاسُـــــوا[2]
ورأونـــــــي ســـــــامِريّاً
يُتّقـــــى مِنـــــهُ المِـــــساسُ
كُلّهـــــم يَـــــسأل عـــــنْ حـــــا
لِـــــي وللـــــذئبِ اعتـــــساسُ[3]
إنْ قَـــــسا الـــــدّهرُ فللمـــــا
ءِ مـــــن الـــــصّخرِ انبجـــــاسُ
ولـــــئن أمـــــسيتُ محبـــــو
ســـــاً فللغَيـــــثِ احتبـــــاسُ[4]

ومن المواقف التي اعتمدت عليها الشكوى في قصة المسيح عيسى بن

---

1 وهو إياس بن معاوية من قضاة العراق في عصر بني أمية وكان يضرب به المثل في الذكاء والفهم.

2 خاسوا: غدروا ونكثوا العهد.

3 الاعتساس: طلب الصيد في الليل.

4 ابن زيدون: ديوانه ٢٧٥- ٢٧٦.

مريم ـ عليه السلام ـ موقف يصور إحدى معجزاته وهي شفاء المرضى من الناس بالمسح على موضع الداء منهم، وكان لا يفعل ذلك إلا بإذن الله تعالى. وقد بيّنا تفصيل هذه المعجزة في المديح.

ويختار المعتمد بن عباد، أبو القاسم محمد بن عباد (٤٨٨ هـ) لفظة (المسيح) ويضعها في قصيدة بعث بها إلى أبيه المعتضد بن عباد يسترضيه، ويشكو إليه داء قرَّح قلبه، ولن يريحه إلاّ رضاه عنه، وهذا الداء هو سخط الوالد على ولده، فزاده مرضاً على مرض، ولن يشفى منه إلاّ أن يبعث (الرضا) مسيحاً، وأن يغفر له ذنوبه ليتخفف من حملها صدره الفسيح. قال:

مَـــــولاي أشـــــكو إليـــــكَ داءً
أصـــــبحَ قلـــــبي بـــــهِ قَريحـــــا
إن لم يُرحـــــهُ رضـــــاكَ عنّـــــي
فلـــــستُ أدري لـــــهُ مُريحـــــا
سُـــــخطكَ قـــــدْ زادنـــــي سَـــــقاماً
فابعـــــث إلـــــيَّ الرضِّـــــا مـــــسيحا
واغفـــــر ذُنـــــوبي ولا تُـــــضيِّق
عـــــنْ حَملـــــها صـــــدركَ الفـــــسيحا[1]

ولو تأملنا ما توحي به لفظة (مسيحا) من مقدرة المسيح ـ عليه السلام ـ على الشفاء من الأمراض بإذن الله، وما في اللفظة ذاتها من الدلالة على إزالة أثر المرض. حتى أن ابن دحية قال: "قوله مسيحا من القوافي التي يتحدى بها

1 المعتمد بن عباد: ديوانه ٣٣ جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥١.

لصعوبتها على من رامها، وأدخلها هو في بابها إذ كان المسيح بن مريم يشفي من العلل وأوصابها"[1].

ويخاطب أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ المجاهد (٦٢٥ هـ) الدهر الذي يراه مرة ضاحكاً يهدي النعيم، وأخرى عبوساً لا يهدي إلاّ البؤس والشقاء، ولقد عهده هو ووالده يهدي إليهما الرضا ويبذل الأنس، فهل يا ترى جزع من شكاية أبيه وقد أصبح راعياً للنجوم، ولكنه بحق ملك تدرّع بعناية الله درعاً حتى غدت لجميع العالمين لبوساً يقيهم البؤس. فلو جاءه عيسى بن مريم معالجاً لأفحمه بالتوكل على الله. وبهذا قاد الزمان وجعله من عبيده، والصعب ـ كالزمان ـ إذا ما عرف لا ينقاد إلاّ بالسياسة واللين. قال:

يـــا دهـــرُ مالـــكَ ضـــاحكاً وعَبوســـاً
أتُعيرُنـــا بعـــدَ النَّعـــيم البؤســـا؟
ولقـــدْ عهـــدتُكَ ضـــاحكاً مُـــتهلّلاً
تُهـــدي القبـــولَ وتبـــذلُ التأنيـــسا
أتـــراكَ تَجـــزعُ مـــنْ شِـــكايةِ ماجِـــدٍ
أضـــحى لزُهـــرِ النيِّـــراتِ جَليـــسا؟
ملِـــكٌ تـــدرَّعَ مـــن عنايـــةِ ربّـــهِ
درعـــاً غَـــدتْ للعـــالمينَ لبوســـا
لـــو جـــاءهُ عيـــسى بـــزيِّ مُعـــالجٍ
قـــصداً لأفحـــمَ بالتوكُّـــلِ عيـــسى

---

1 ابن دحية: المطرب ١٣.

ســـاسَ الزَّمـــانَ فكـــانَ مِـــن عُبدانـــهِ

والـــــصَّعبُ مُنقـــــادٌ إذا مَاسيـــــسا[1]

(٨) الإخوانيات:

وهي خطابات أدبية ـ شعراً أو نثراً أو كليهما معاً ـ تتميز بأسلوب أدبي رفيع، موجهة إلى ذوي السلطة والنفوذ، وإلى أصحاب الشاعر وإخوانه، وهي تختلف باختلاف المرتبة المرسل إليها، فإن كانت مرسلة إلى مرتبة أعلى، فإن أسلوبها يتصف بعبارات الود والاحترام ويطغى عليها التكلف، وإن كانت مرسلة إلى مرتبة متساوية، فإن أسلوبها يتميز بالود والظرف والتحرر من التكلف والقيود الرسمية ومن موضوعات هذا الغرض: العتاب، والاعتذار والمراجعات ورسائل التحية.

أ- **العتاب:**

ففي العتاب يتودد الشاعر بأبيات يبعثها إلى الأمير أو إلى الصديق ويظهر له تمسكه به رغم الجفاء الذي حدث بينهما، ويتساءل عن سبب تغيّره أو تجافيه، ثم يصل إلى الجواب أن هناك من يسعى إلى التفريق بينهما. ويحتج بإحدى القصص القرآني في ذلك.

فابن اللبانة الداني (ـ٥٠٧ هـ) في عتابه ناصر الدولة يتحدث عن تمكُّن الأعداء من الوصول إلى الأمير، ولولاهم لما آثر الرحيل عنه، وحجته في ذلك أن البلل من الغيث في واد لا يمنع السيول عنه، ويعني أن القليل من مؤامرتهم لا يمنع التكثير منها. وبرحيله لعله يرتاح من الطالبين إياه بالعداوة فيسكن تحت ظلال الأمن لأنهم قد أوقدوا له نيران العداوة، ولكن الله صيّره الخليل فيها، وجعلها برداً وسلاماً. قال:

---

1 ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٨٠.

ولـــــولا مقـــــامي بـــــين العـــــداةِ
لمـــا كنـــتُ أُؤثـــر عنـــكَ الـــرَّحيلا
ومَـــنْ بلّـــهُ الغيـــثُ في بطـــنِ وادٍ
وبـــاتَ فـــلا يـــأمنَّ الـــسيولا
عـــسى رأفـــةً في ســـراحٍ كـــريمٍ
أُبـــل بـــبردِ نـــداهُ الغلـــيلا
لعلّـــي أُراحُ مـــن الطّـــالبينَ
فأســـكن للأمـــنِ ظـــلاً ظَلـــيلا
لقـــدْ أوقـــدوا لـــيَ نيرانَهـــم
فـــصيَّرني اللهُ فيهـــا الخَلـــيلا[1]

وابن زيدون (٤٦٣هـ) في عتابه أبا الحزم جهور أمير قرطبة يثني عليه ثناء يغالي فيه، ثم يقدم حججه في سبب هذا البعد أو التجافي بينهما، وهو تلفيق الوشاة كذباً عليه، فكانوا مثل أبناء يعقوب في اتهامهم الذئب بأكل أخيهم يوسف، وهو كالذئب بريء من دمه. فقال:

إنّ الجهـــاورةَ الملـــوكَ تبـــوّؤا
شـــرفاً جـــرى معـــهُ الـــسِّماكُ جَنيبـــا[2]
عقـــدُ تـــألّفَ في نظـــامِ رياســـةٍ
نـــسقَ الآلىء مُنجبـــاً ونجيبـــا

1 ابن اللبانة الداني: شعره ٧٩ (ق٦٤).

2 السماك: أحد نجمين نيرين: الأعزل والرامح.

وإذا دَعـــــوتَ وليـــــدَهم لعظيمـــــةٍ

لبّـــــاكَ رقـــــراقَ الـــــسَّماحِ أريبـــــا

وإذا تفـــــنَّنَ في اللّـــــسانِ ثنـــــاؤهُ

فـــــافتنَّ لم يكُـــــن المُـــــرادُ غَريبـــــا

غـــــالى بمـــــا فيـــــه فغـــــيرُ مُواقـــــعٍ

سَـــــرفاً ولا مُتوقـــــعٍ تكـــــذيبا

كـــانَ الوشـــاةُ ـــ وقـــدْ منيـــتُ بـــإفكهم ـــ

أســـباطَ يعقـــوبٍ وكنـــتُ الـــذِّيبا[1]

ومن القصص القرآنية التي يحتج بها في العتاب أيضاً قصة قارون، وكان من قوم موسى ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله من الكنوز ما لا يعد ولا يحصى، وقد نصحه الناصحون في ابتغاء ثواب الآخرة وهو خير وأبقى من ماله، والتمتع بما أحل الله له من الحلال في الدنيا، ولا يبغ في الأرض فساداً، ولكنه ازداد بطراً وغروراً وتظاهر بماله، فخسف الله به وبداره وماله الأرض، فكان عبرة لمن اعتبر. قال تعالى: ﴿إِنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إِن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوّة إِذ قال له قومه لا تفرح إِن الله لا يحب الفرحينُ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إِليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إِن الله لا يحب المفسدينُ قال إِنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمونُ فخرج

---

1 ابن زيدون: ديوانه ٣٢٨- ٣٣٠. والأسباط أبناء البنات والمراد هنا أبناء يعقوب، وهم أسباط اليهود الاثنا عشر.

على قومه في زينته قال الّذين يريدون الحياة الدّنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيمُ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلاّ الصابرونُ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾[1].

ويبعث أبو عبد الله محمد بن مسعود برقعة يخاطب بها ابنه معاتباً إياه بعد توجهه إلى غرب الأندلس لينهض بنفسه، ولما تحقق له ما أراد، خلع عذاره في البطالة، وتجاوز في ذلك الحد ولم يقنع من حظه في البعد بالقليل، ونسي شوق أم حزينة، وقلب أب هائم عليه، والحجة في ذلك أنه لا يفي بعبثه خزائن قارون ذاتها، قال:

تجاوزتَ في هذا وذلكَ ما بهِ
أمرْتَ ولمْ تقنع مِنَ البُعدِ بالدُّونِ
ولم تتذكر شوقَ أُمٍّ حزينةٍ
عليكَ وشيخٍ هائمِ القلبِ مَحزونِ
بماذا يفي هذا وذلك لو حوت
يمينُكَ ما حازت خزائنُ قارونِ[2]

ب- الاعتذار:

وفي الاعتذار يعبر الشاعر بتكلف عن الأسباب التي دعته إلى التأخر أو التباطؤ عن تلبية رغبة الأصحاب والإخوان، فيقدم الحجج على ذلك، مستمداً بعض الدلائل من القصص القرآني.

فابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦هـ) يعتذر لإخوانه الذين يعاتبونه

---

1 سورة القصص: الآيات ٧٦- ٨١.

2 ابن بسام: الذخيرة ق١/١/٥٥٠.

في طلب الرحلة وما بها من أذى، وروحه لا تفارقهم، بأنه يريد المعاينة أو التجربة ليطمئن قلبه إلى وفاء الإخوان، ولذلك طلب إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وهو مؤمن بذلك، ولكن ليطمئن قلبه.

قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعياً واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾[1].

قال ابن حزم:

يقـــولُ أخـــي : شـــجاكَ رحيـــلُ جـــسمٍ
وروحـــكَ مـــا لـــهُ عنّـــا رَحيـــلُ
فقلـــتُ لـــه : المُعـــاينُ مُطـــمئنٌّ
لِـــذا طَلَـــبَ المعاينـــةَ الخليـــلُ[2]

وكذلك قوله في هذا المعنى محتجاً بطلب موسى ـ عليه السلام ـ رؤية الله تعالى ـ وهو مؤمن به، ولكن ليزداد إيماناً. قال تعالى: ﴿ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلمّا أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾[3].

قال ابن حزم:

لـــئن أصـــبحتُ مُـــرتحلاً بشخـــصي
فروحـــي عنـــدكم أبـــداً مُقـــيمُ

---

1 سورة البقرة: الآية ٢٦.

2 الحميدي: جذوة المقتبس ٢٩٣.

3 سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

ولكـــــن للعيـــــانِ لطيـــــفُ معنـــــى
لـــــهُ ســـــألَ المعاينـــــةَ الكلـــــيمُ[1]

ج- **المراجعات:**

أما شعر المراجعات فهو لون من ألوان شعر الإخوانيات الذي يفيض باللوعة والاشتياق، ويتميز بأسلوب يصل حد المغالاة والتكلف، ويشترط في هذا اللون من الشعر أن يلتزم الشاعر في قصيدة الجواب أو المراجعة بأن تكون على وزن وقافية القصيدة المرسلة إليه، وقد يستمد من القصص القرآني ما يقوي به رده.

ومن القصص القرآني التي استند إليها الشعراء في المراجعات قصة ثمود وأخيهم صالح - عليه السلام - ومعجزة الناقة التي خلقها الله لهم خيراً وبركة ترعى مما تنبت الأرض، فيصيبوا منها لبناً سائغاً شرابه، ولكنهم تعرضوا لها بسوء فعقروها، ونزل بهم العذاب. وقد تحدثنا عن ذلك في غرض الوصف. قال تعالى: ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾[2].

ويقدم ابن راجح، أبو عبد الله محمد بن علي علم ٧٥٠ هـ إلى الأندلس في موكب مهيب، ويستقبله ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٧٧٦هـ) بقصيدة يثني فيها على هذا الركب الذي أسفر الصبح لمرآه من خلف الأباطح والربى، وعندما حطت ناقته وسط مسارح السعدان، طلب من قومه أن يدعوها تمرح في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بسوء فهي ناقة صالح، تجلب لهم الخير والبركة. قال:

رعـــى الله ركبـــاً أطلـــع الـــصُّبحَ مُـــسفراً
لمـــرآكَ مِـــنْ فـــوقِ الرُّبـــى والأبـــاطحِ

---

1 ابن العماد: شذرات الذهب ٣/٣٠٠. ط المكتب التجاري، بيروت (د.ت).

2 سورة هود: الآيتان ٦٤- ٦٥.

أقـــولُ لقـــومي عِنـــدما حـــطَّ كُورُهـــا
وســـاعدها الـــسَّعدان وســـطَ المـــسارح
ذروهـــــا وأرض اللهِ لا تعرضـــــوا لهـــــا
بمعـــرض ســـوءٍ فهـــي ناقـــةُ صـــالح

فأجابه بالتشوق إلى مثل هذا الحمى، مسرح أمانيه ووصله، ومربع آرامه، ومورد ناقته، قائلاً:

أمِـــنْ مطلـــع الأنـــوارِ لمحـــةُ لامـــحِ
تُعـــارُ لمفقـــودٍ عـــن الحـــيِّ نـــازح
وهـــل بـــالمُنى مـــن مـــوردِ الوصـــلِ يرتـــوي
غليـــلُ عليـــلٍ للتّواصـــلِ جـــانِح
فيـــا فـــيضَ عـــينِ الـــدَّمع مالـــكَ والحمـــى
ورنـــد الحمـــى والـــشيح شـــيحُ المـــشايح
مرابـــعُ آرامـــي ومـــوردُ نـــاقتي
فـــسُقيا لهـــا سُـــقياً لناقـــةِ صـــالح[1]

ويستمد الشعراء كذلك من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ موقفاً في المراجعات يوافق مواقفهم، وهو حزن يعقوب ـ عليه السلام ـ حينما اشتد عليه فراق يوسف، فابيّضت عيناه من الحزن والبكاء اللذين كان يخيفهما عن بنيه، لولا نحول جسده، وضعف قوته، فيشكو بثه إلى الله، ولم ييأس من رحمة الله وقدرته على إرجاع يوسف إليه، ويجعل له من بعد حزنه فرجاً. وقد تحدثنا عن ذلك في غرض الرثاء.

ولما دخل المرابطون الأندلس فاتحين أوائل عام ٤٨٤ هـ أنفذ المعتصم بالله

1 ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/٥٧٣- ٥٧٤.

محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ابنه عبيد الله رسولاً إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ـ عند كونه بغرناطة ـ فاعتقل وقيد، فكتب إلى أبيه يشكوه الضعة بعد الرفعة، والكبول بعد ركوب الخيول، والعبودية بعد الحرية، والذل بعد العز قائلاً:

أبعـــــدَ الـــــسّنا والمعـــــالي خُمـــــولُ
وبعـــــدَ ركـــــوبِ المـــــذاكي كُبـــــولُ؟
ومـــــن بعـــــدِ مـــــا كنـــــتُ حُـــــرّاً عزيـــــزاً
أنـــــا اليـــــومَ عبـــــدٌ أســـــيرٌ ذَليـــــلُ

فراجعه أبوه بجواب يفيض لوعة وحزناً عليه، يشاركه في حزنه الدموع بانهمارهما، والسيوف بتقطيع أغمادها، والبنود الخافقة بتمزيقها، والطبول بنوحها حتى يعم الحزن عليه، فيصبح مثل حزن يعقوب على يوسف، ولم يبق له سوى الصبر الجميل على فراقه. فقال:

عزيـــــزٌ علـــــيَّ، ونـــــوحي دليـــــلُ
علـــــى مـــــا أقاســـــي، ودمعـــــي يَـــــسيلُ
لقطَّعـــــــتِ البـــــــيضُ أغمادَهـــــــا
وشُـــــقّت بنـــــودٌ وناحـــــتْ طُبـــــولُ
لـــــئن كنـــــتُ يعقـــــوبَ في حزنـــــهِ
ويوســـــفَ أنـــــتَ، فـــــصبرٌ جَميـــــلُ[1]

د- رسائل التحية:

ورسائل التحية من الموضوعات الإخوانية التي تصوّر لنا جانباً مهماً من العلاقات الاجتماعية بين الأدباء وهي رسائل تتضمن أبياتاً شعرية يتكلف

---

1 ابن الآبار: الحلة السيراء ١/٨٨- ٨٩.

فيها الشاعر إظهار التودّد والتشوّق لإخوانه، ساعياً إلى دوام المودة والقربى، وقد يستدل ببعض المواقف من القصص القرآنية على صدق محبته وأشواقه.

ومن ذلك في موقف آخر من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وفيه يعود أخوته بقميصه من مصر، ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد بصيراً، ويزول عنه الغم والحزن. وقد تحدثنا عن ذلك في الغزل.

ويتحول قميص يوسف عند ابن السيد البطليوسي، أبي محمد عبد الله بن محمد (٥٢١هـ) إلى كتاب من محبوبه وقد جاء به الرسول بعد طول هجر وتباعد، فأبدل ما بينهما من بعد إلى قرب حتى ظنه حاضراً معه ينظر إليه بعينيه، ويهدي إليه ما في فمه من طيب، وظل يطوي الكتاب وينشره، حتى كاد يبلى من كثرة تقليبه وتقبيله، كل قبلة تبرد حر عذابه، وكأنه حين أزال الحزن عن خاطره قميص يوسف حين ألقي على عيني يعقوب أزال حزنه، ورد إليه بصره. قال:

نفسي فِداءُ كتابٍ حازَ كُلّ مُنىً
جاءَ الرَّسولُ بهِ من عِندِ محبوبِ
مُبشّراً إنّ ذاكَ السُّخطَ عادَ رِضىً
وبدّلت منهُ مِنْ بُعدٍ بتقريبِ
حَسبتهُ ناظراً نحوي بناظرهِ
ومُهدياً لي ما في فيهِ مِنْ طيبِ
ظللتُ أطويهِ مِنْ وجدٍ وأنشرهُ
وكادَ يُبليه تقبيلي وتَقليبي
كم قُبلةٍ لي في عُنوانهِ عَذُبَتْ
وبرّدتْ بالتّلظّي حرَّ تعذيبِ

كأنّـــهُ حـــين جلّـــى الحُـــزنَ عـــنْ خلـــدي

قمـــيصُ يوســـفَ في أجفـــانِ يَعقـــوبِ[1]

ومن ذلك أيضاً قصة سليمان ـ عليه السلام ـ وبلقيس، ومقدرة الجن على إحضار عرشها إليه، قبل أن يرتد إليه طرفه إذا نظر إلى أبعد غاية منه. ولما رآه مستقراً عنده في هذه المدة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس قال: هذا من فضل ربي.

قال تعالى: ﴿قال يا أيّها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمينُ قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنّي عليه لقوى أمينُ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّى غنىّ كريم﴾[2].

ولما ارتحل عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) من المريّة إلى بلدة بسكرة، واستقر عند رئيسها أبي العباس بن مزنى، خاطبه ابن الخطيب (٧٧٦هـ) برسالة تحية، يبين فيها اشتياقه إلى حبيب فارقه ورماه بسهام البعد قصداً فأصابه، وهو وإن ناله الأذى من فراقه يشتاق إليه اشتياق الظمآن إلى الماء وقد سأل جن أشواقه إحضار عرشه، أو بالأحرى إظهار صورته أمامه قياساً بجن سليمان في إحضار عرش بلقيس. فقال:

بِنفـــسي ومـــا نفـــسي علـــيَّ بهينَـــةٍ

فينـــزلني عنهـــا المكـــاسُ بأثمـــانِ

حبيـــبٌ نـــأى عنّـــي وصـــمَّ لا يـــني

وراشَ ســـهامَ الـــبَينِ عمـــداً فأصـــماني

---

1 د. صاحب أبو جناح: ابن السيد البطليوسي: حياته: منهجه في النحو واللغة. شعره ٨٩، مجلة المورد م (٦) ع (١) لسنة ١٩٧٧.

2 سورة النمل: الآيات ٣٨- ٤٠.

وإنّـــي علـــى مـــا نـــالني منـــهُ مِـــنْ قلـــىً
لأشـــــتاقُ مِـــــنْ لُقيـــــاهُ نُغبـــــةَ ظَمـــــآنِ
ســـألتُ جُنـــوني فيـــه تَقريـــبَ عرشـــهِ
فقـــستُ بجـــنِّ الـــشّوقِ جـــنَّ سُـــليمانِ[1]

وهكذا فإن القصة في الأغراض الشعرية هما قصتان الأولى: قصة واقعية، وقد وجدنا الأحداث فيها واضحة ومرتبة وتقتصر على أفعال المخاطب، ونعني بالمخاطب الممدوح، أو الحبيب، أو المهجو، أو غيرهم من الشخصيات التي يتوجّه إليها الشاعر بشعره، وأفعال الشاعر وما يحيط به من أحداث. وأبطال القصة بالإضافة إلى المخاطب والشاعر ـ هم جميع الأشخاص الذين يدخلون تحت مظلة الحدث. وقد يأتي الحديث عن المكان والزمان ضمنياً، وصيغة الحديث لا تتعدى السرد الوصفي والمناجاة، ونادراً ما يدخل الحوار إليهما. وطريقة السرد الوصفي أبين في التعبير من المناجاة وذلك لأن المباشرة في الخطاب تفرغ القصة من محتواها.

والقصة الثانية هي القصة القرآنية وهي قصة تاريخية يستشهد بها الشاعر محتجاً بها على صدق حديثه، وهي أقصر من الأولى إذ لم تنل من شعره إلاّ بيتاً أو بيتين أو أقل من ذلك، ولكنها تتضمن في محتواها قصة كبيرة أو جزءاً من قصة، فترتبط القصتان الأولى والثانية بأحداث متشابهة، وأبطال متماثلين، وهدف واحد. وبذا يتحوّل الشاعر إلى قاص أيضاً من خلال سرده للقصة القرآنية، وتوضيح الصلة بين بطلي القصتين، والقصد من وراء سوقه قصة قرآنية معينة إلى شعره، ولن يتأتى ذلك للشاعر ما لم يكن متمكناً من الاطلاع إطلاعاً دقيقاً على القصص القرآني.

---

1 ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ١٠٤ تحقيق محمد بت تأويت الطنجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١.